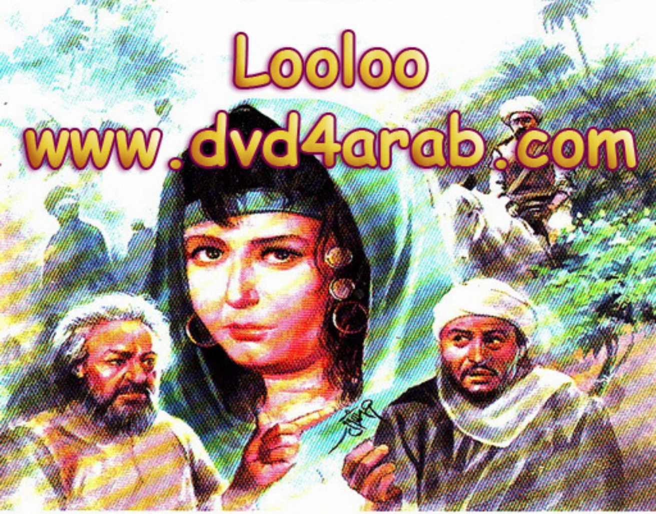
روايات الهلال للأولاد والبنات

سلسلة تاريخ الإسلام

جرجي زيدان



غادة كربلاء

قبل أن تقرأ ..

«جرجى زيدان» مفكر لبنانى المولد مصرى الإقامة عروبى الهوى.. إسلامى الثقافة.. عاش ثلاثة وخمسين عاماً فقط (١٨٦١ - ١٩١٤) ، قدم خلالها للفكر العربى أكثر من خمسين كتابا فى مجالات الفكر كافة.. يأتى فى مقدمتها «روايات تاريخ الإسلام» (٢٣ رواية) ، والتى استطاع من خلالها أن يقدم التاريخ الإسلامى بسهولة ويسر، كما اتسمت رؤيته بالإنصاف والعدل ، وهو الكاتب المسيحى المستنير الذى استطاع أن يضع يده على عناصر التسامح والعقلانية فى تاريخ الإسلام، وحوّل هذا التاريخ من مادة صماء إلى حكايات ووقائع وشخصيات شديدة الحيوية، مما جعل هذه الروايات تحقق نجاحات كبيرة وإقبالاً شديداً بين مختلف فئات المجتمع داخل مصر وخارجها عند نشرها مسلسلة على صفحات مجلة «الهلال» بداية من السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر.. ولكل ذلك فنحن نعيد تقديم هذه الروايات للأجيال الجديدة «بشكل جديد» لما لها من أهمية فكرية وتاريخية، ولما تحمله بين طياتها من إجابات على كثير من علامات الاستفهام التى تشغلنا فى الوقت الحالى...

رئيس التحرير

المقدمة

هذه رواية المأساة الكبرى فى تاريخ الإسلام .. مأساة مقتل الحسين بن على رضى الله عنه فى كربلاء، قتله عبيد الله بن زياد والى الكوفة من قبل يزيد بن معاوية الذى تولى الخلافة بعد عهد أبيه معاوية بن أبى سفيان الذى بايعه الحسن بن على بعد مقتل أبيه على بن أبى طالب ليحقن دماء المسلمين بعدما أدرك إصرار معاوية على الخلافة.

وفى تاريخ كل أمة لحظات مأساوية، تتغلب فيها النزعات البشرية على العقل والحكمة، وتخطئ فيها الاجتهادات، ويترتب على هذه الأخطاء نزف الدماء.

وهذه اللحظة المأساوية فى تاريخ المسلمين لحظة مؤسفة بلا شك، وأكثر ما يستدعى فيها الأسف تعارض الروايات بحسب ميول الأطراف التى تصدر عنها.

من ثم يحتاج الأمر إلى تحقيق هذه الروايات وتحليلها تحقيقا علميا، وتحليلا محايدا فى محاولة لاستخلاص الحقيقة واستجلاء الحدث.

ومع أن جرجى زيدان فى هذه الرواية «غادة كربلاء» كعادته غلف التاريخ بالرواية إلا أنه استطاع أن يأتى بالحدث الذى وقع، كما عليه جمهرة المؤرخين بحيث أتى بالوقائع كما وقعت.

فما من شك أن معاوية عهد إلى ابنه يزيد بالخلافة من بعده، وتم ليزيد العهد، ومن بعد معاوية تمت البيعة، كل ذلك والمسلمون بين مؤيد ومعارض، ولم تكن شخصية يزيد بنفس الثقل الذى كان لشخصية الحسين.

وقد تلقى الحسين كتبا كثيرة من أهل الكوفة - الذين عرفوه من قبل وعرفوا أباه عليا خليفة - يدعونه إلى مبايعته بالخلافة

وفاء لأبيه وللحق الذى كانوا يؤمنون به، فما كان للحسين فى الكوفة دعاة له ولكنها رغبتهم الخالصة، ومبايعتهم الصادرة عن اختيار ورضى كاملين، مما وضع الحسين فى حرج هل يتخلى عن نداء الواجب؟ أو يسير إلى من بايعوه بالإمامة، وهو يعلم أن هذه البيعة حق وأنه يقابلها واجب.

ورغم أن بعض الناصحين المحنكين نصحوه بعدم الذهاب إلى الكوفة لأن العراق قُلّب لايؤمن جواب الحسين بالذهاب إليه، فقد اختار الحسين أن يبعث ابن عمه مسلم بن عقيل ليستكشف حقيقة الأمر، فلما اطمأن أخذا أهله وصحبه وسار إلى الكوفة، وسرعان ماتغيرت دفة التاريخ، فما أن وصل إلى قريب من الكوفة حتى عرف أن القلوب معه، لكن السيوف عليه.. وكانت المأساة.

يعرض جرجى زيدان هذا القدر المتفق عليه فى الأحداث لكن يبقى أن الرجل، عرض من خلال تفاصيل الأحداث شخصية الحسين وشخصية يزيد، وعرض نفسيات أصحاب الرجلين عرضا موضوعيا بكل ما يمكن أن يكون للموضوعية من مكان، كما عرض لأحوال المسلمين التى تغيرت عما كانت عليه أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مايمكن أن يكون للحياد من مكان.

وأهم من كل ذلك أن «جرجى زيدان» نجح فى تصوير موقف المسلمين من كل من الحسين ويزيد، فهم يحبون الحسين ويبايعونه بقلوبهم، ويعرفون أن يزيدا دونه، ولكنهم يبايعونه على الخلافة يحدو الخوف بعضهم، ويدفع بعضهم الحذر من أن مبايعة الحسين لن تنفعه شيئا، فالقوة مع يزيد ومع أنصاره الدهاة من أمثال عبيدالله بن زياد، وشمر بن ذى الجوشن، وعمر بن سعد وغيرهم بينما كان كثيرون ينأون بأنفسهم عن

المستنقع.

صور «جرجى زيدان» صراع القيم المادية ومحاولة أنصارها التسلل إلى القيم الأخلاقية والمثل العليا، وسجل بوضوح فى روايته أن أنصار الحسين وأنصار أبيه من قبله كان يمكن أن يحروزا النصر الدنيوى على خصومهم، وبنفس وسائل هؤلاء الخصوم، لكنهم أبوا أن يخرقوا المثل العليا فى كل مرة توقف انتصارهم على أن يقفوا موقفا لا ترتضيه الأخلاق.

لقد كان يمكن أن يتحول ميزان المعركة لصالح الحسين لو أن «هانئ بن عروة» (من شيعة الحسين) قبل أن يقتل عبيدالله بن زياد عندما جاء يزور هانئاً فى بيته، لكنها الأخلاق هنا والسياسة هناك، وكأن منطق الدنيا ومنطق الآخرة كانا على موعد!!

فإلى الرواية..

عبدالمعطى بيومى

بنو هاشم وبنو أمية

عرب الحجاز قبل الإسلام كانت تجمعهم قبيلة قريش . وكانت تضم فريقين : بنو أمية وبنو هاشم . وكان بنو أمية أكثر عددا. فلما جاء الإسلام على يد بنى هاشم أسفر عن سطو بنى هاشم فى مكة حتى مات عم النبى أبو طالب ، فهاجر كثير من بنى هاشم إلى المدينة مع من هاجر من الصحابة وفيهم حمزة والعباس عما النبى ، وكثيرون غيرهم من بنى عبدالمطلب وسائر بني هاشم . فخلا الجو فى مكة لبنى أمية ، وصارت الرياسة إليهم فى أثناء محاربتهم المسلمين فى بدر وغيرها ، ورئيسهم يومئذ أبو سفيان والد معاوية مؤسس الدولة الأموية.

فلما فاز المسلمون فى غزواتهم وهموا بفتح مكة سنة ٧ هـ ، كان أبو سفيان كبير قريش فيها .. وتحقق أن المسلمين سيفتحون مكة لا محالة ، فجاءهم وأسلم ثم أسلم أولاده .

ولما تولى أبو بكر الخلافة وعمر من بعده فتولى ولاية الشام يزيد بن أبي سفيان حتى مات، فخلفه أخوه معاوية، ولما تولى الخليفة عثمان الخلافة أقره عليها.

فلما قتل عثمان واختلف الناس على من يبايعون بعده ، كان دعاة على أكثر عددا .. ولكنهم كانوا لفيفا من قبائل شتى . وكانت أحزاب معاوية كلها من قريش أهل البأس والشدة ، فكانت عصبية معاوية أشد . ثم ظهر الخوارج من رجال على فانكسرت شوكته حتى إذا قتل على سنة ٤٠ هـ ، فاتفق الجماعة على بيعة معاوية فى منتصف سنة ٤١ هـ . وكان الناس قد رجعوا إلى أمر العصبية فدانوا للأقوى .. بذلك غلب معاوية واستقل بالخلافة . وكان يبالغ فى الحط من قدر بنى هاشم ، وبالأخص أبناء الإمام على . وكان يفرض على من يعترف بطاعته أن يلعن عليا جهارا ، فإذا لم يفعل عاقبه ..

وأقام معاوية خليفة فى الشام عشرين سنة (من سنة ٤١ – ٦٠) وظل المسلمون فى الحجاز والكوفة ينتظرون موته ليبايعوا الحسين بن على لقرابته للرسول لأن الخلافة كانت شورى ، فسبقهم معاوية قبل موته إلى بدعة أحدثها ومازالت مرعية بعده إلى هذا اليوم ، وهى الحكم الوراثى ، فأوصى بولاية العهد لابنه يزيد . فلما توفى معاوية تولى الخلافة يزيد بن معاوية وعمره – إذ ذاك – بضع وثلاثون سنة ..

ديار خالد

غوطة دمشق بقعة فى بلاد الشام مشهورة بخصبها .. مساحتها خمسة أميال، تحيط بها جبال عالية ، وتجرى فيها أنهار تسقى بساتينها ، وتصب فى بحيرة هناك .. وفى هذه الغوطة عمرت دمشق الشام منذ بضع آلاف سنة ..

وكان على بعد ميل من الباب الشرقى من دمشق ، دير قديم يقال له «دير خالد» سمى بذلك نسبة إلى خالد بن الوليد ، لأنه حين جاء لفتح الشام فى أوائل الإسلام نزل فيه ، وكان اسمه قبل ذلك «دير صليبا» .

وإذا نظرت إلى ذلك الدير من خارجه ، تخيلته قلعة منيعة .. ويحيط به سور كبير يبلغ ارتفاعه قامة وبعض قامة ، وبابه من الخشب . وقد علقوا عنده ناقوسا إذا جاء طارق دقه ، فيسمعه أهل الدير فيفتحون له .

وكان رئيس ذلك الدير شيخا طاعنا فى السن رومى الأصل . قد فاز بمنزلة رفيعة لدى الرهبان ، وكان معاوية يحترمه .. وكثيرا ما كان يجالسه إذا خرج للرياضة فى الغوطة ، ولما تولى يزيد الخلافة ظل على احترامه وإكرامه .

وذات يوم من أيام الخريف عام ٦٠ هـ ، أصبح أهل الدير كالعادة وقد جاءهم الفلاحون بأحمال الفاكهة من بساتين الدير.

وكان الرئيس يشرف على عملية حمل ونقل الاحمال، ثم ترك الساحة وصعد إلى حجرته، ثم عاد وهو يقول لوكيله : «رأيت جمالا

محملة وأناسا يدل زيهم على أنهم من أهل العراق» .

وأظنهم من القافلة التى أبصرتها عن بعد فى هذا الصباح .. فلابد لنا أن نقوم لهم بواجب الضيافة، عملا بالعهد المعطى لنا» .

ولم يكن الوكيل قد سمع بذلك العهد ، فقال : « وما هو ذلك العهد؟» . قال : « هى عهود أخذت على النصارى منذ الفتح تقضى أن يقوموا بضيافة المسلمين ثلاثة أيام يخدمونهم ويقدمون لهم كل ما يحتاجون إليه» .

فلما سمعا صوت الناقوس ، فقال الرئيس : «استقبل الضيوف ، ورحب بهم ، وبعد أن تجلسهم فى أماكنهم ، أخبرنى» .

فإذا هم ثلاثة ، وعلى رؤوسهم الكوفيات مشدودة بالعقال تغطى بعض وجوههم ، ومعهم بضعة جمال يدل مجمل حالهم على أنهم من تجار العراق ، ولما دنوا من باب الدير لحظ الوكيل من خلال الكوفيات أن أحدهم فتاة فى مقتبل العمر ، فاشتبه فى أمرهم وقال فى نفسه : «لو كانوا قادمين لمجرد الاتجار لما كان ثمة داع لمجىء تلك الفتاة معهم» . فلما وصلوا إلى الباب ، ذهب لاستقبالهم .

عروس الرواية

نزل الرئيس لاستقبالهم ورحب بهم . وجلسوا على مقعد .. فتفرس فيهم فرأى أحدهم فى نحو الخمسين من عمره ، طويل القامة ، عريض الأكتاف ، رقيق الوجه .. فتذكر أنه رآه غير مرة . والثانى شاب لايتجاوز عمره بضعا وعشرين سنة ، ولكن من يراه يحسبه ابن ثلاثين .. وكان مشرق الوجه .

وأما الثالث ، وهو الفتاة ، فلم يلبث الرئيس عند النظر إليها أن أعجب بجمالها .. فلم تقع عيناه قبل تلك الساعة على فتاة فى وجهها من الجمال والهيبة مثل ما فى هذا الوجه ، وقد أدهشه جمال عينيها .

«سلمى» هى عروس روايتنا .

في محياها شيء لايعبر عنه إلا بالسحر ، إذ لايراها أحد إلا وينجذب نحوها، فضلا عما فطرت عليه من الذكاء ، مع ما يتجلى في وجهها من عزة النفس .

ولما رأى الرئيس أولئك الضيوف – ظنهم أبا وولديه ، ولكنه ما لبث أن تبين من اختلاف الملامح أن الكهل ليس أباهما ، فافتتح الرئيس الحديث قائلا : « يظهر أنكم قادمون من مكان بعيد .. لعلكم من العراق ؟» .

فأجاب عامر : « نعم يا سيدي ، إننا قادمون بأحمال التمر من الكوفة إلى أسواق دمشق» .

ولم يكد عامر يتم كلامه حتى عرفه الرئيس وتذكر اسمه ، فابتدره قائلا : «ألست عامرا الكندي ؟» ، فابتسم عامر ، وقال : « إني هو يا سيدي ..» .

ثم سأله الرئيس «ولعل هذا الشاب ابنك وهذه الفتاة ابنتك ؟ .. ما اسماهما ؟» .

فتوقف عامر لحظة ، ثم قال : « نعم إنهما ولداي .. واسماهما عبدالرحمن وسلمى» .

فاكتفى الرئيس بذلك السؤال ، وقد أحس في نفس عامر شيئا يريد كتمانه .

وقال: « هل تكبدتم مشقات هذا السفر الطويل لمجرد الاتجار بهذه الثمار ؟ .. أنها لا تباع بما يساوي تعبكم في حملها !» : «صدقت – يا مولاي – ولو اتكلنا على بيع هذه الأحمال ما تكبدنا المشقة من أجلها، ولكننا نبيعها ونبيع الجمال أيضا .. وهي تباع بثمن غال وأرباحها أضعاف أرباح التمر .

الشيخ الناسك

وكان عامر والرئيس يتكلمان ، وسلمى تنظر إلى شيخ بجانبه كلب كبير الهامة أسود اللون قوي البنية .

وأما الشيخ ، فإنه استرعى انتباه سلمى لغرابة هيئته . وقد كان من الشيخوخة بحيث لم يبق في شعره شعرة سوداء .

ومما يزيد منظره رهبة ، أنه لم يمشط شعره ، ولا غسل وجهه منذ أعوام .

وكان الشيخ متكئا بجانب الكلب وقد غلب عليه النعاس ، وكلبه بالقرب منه ، وكلاهما مستأنس برفيقه .

قال الرئيس همسا : « إن هذا الشيخ أشبه شيء بالنساك والمتعبدين ، ولكنه يخالفهم في أمور كثيرة ، وكأن به خبلا . جاءنا منذ أعوام فأقام عندنا ، وهذا الكلب الأسود لايفارقه ليلا أو نهارا .. ومن غريب أمره أنه لا يأوي إلى غرفة ينام فيها . ومن أغرب ما فيه أنه لا يأكل شيئا غير الفاكهة» .

وبينما هم يتهامسون ، سمعوا قرع الناقوس .. فخف أحد الرهبان ليستقبل القادم .. فطال وقوفه خارجا ولم يعد ، فنهض الرئيس في أثره .

فرأى بالباب رجلا في لباس يشبه لباس عامر ورفيقه . وفي وجهه من البرص الشديد إلى درجة البياض الناصع ، على أنه حسبه لأول وهلة رفيقا لعامر ، وقد تخلف في الطريق ، فرحب به وقال له : « تفضل .. إن رفاقك جلوس هنا منذ ساعتين» .

فأومأ إليه الرجل أن يسكت ، وقال له : « احترس من أن تذكر خبر مجيئي لأحد ، وخاصة لهؤلاء الثلاثة الذين ظننتهم رفاقي . وأما الآن فإني أطلب إليك أن تدخلني غرفة لايراني فيها أحد ولا يعلم أحد بوجودي هنا . فالأمر يتعلق بمولانا أمير المؤمنين» .

فخاف الرئيس ، وأجاب على الفور : « إني فاعل ما تريد ..» .

جدال

تكلم عبدالرحمن ، فخاطب عامرا قائلا : « ألم أقل لك إنك أخطأت بمجيئك إلى هذه الديار .. ولو أنت وحدك لكان خيرا ،

ولكنك اصطحبت سلمى» .

فقال عامر : «جئت مدفوعا بما تعهدت به من أمر حراستك ، فإنك بمنزلة ولدى .. وقد مات والدك وأوصانى بكفالتك . ورأيتك اندفعت إلى عمل خطير تقوم به وحدك فى بلاد غريبة ، فكيف لا أتبعك ؟! .. أما سلمى فإنها أشد قلقا منى عليك» .

فقال : « لعلك ترمينى بالسفه فى عمل انتقم به لآل الرسول صلى الله عليه وسلم وأنقذ به المسلمين» .

فقطعت سلمى عليه الكلام بصوت هادىء ، وقالت : « لاريب فى أن الأمر الذى جئت من أجله أمر مقدس ، وإذا أنت لم تقدم عليه أقدمت أنا .. ولعلى أولى به منك ... فإن الرجل الذى تنوى قتله وإراحة الناس منه قد أساء الىّ ، وبينى وبينه ثأر عظيم ، لأن والده قتل والدى حجرا الكندى سيد قومه قتله، لأنه لم يطعه فى لعن الامام على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .. نعم إن يزيدا يستوجب القتل.

فإذا كنت أنت ناقما لقتل حجر لأنه عمك ، فإنه أبى وأصل وجودى ثم توقفت عن الكلام هنيهة ، ثم قالت لعامر : « وأنت يا عماه لم تخبرنى حتى الآن بتفصيل ذلك القتل ، فلا تنس وعدك بأن تقص على تفصيل الخبر على قبره .. فقد ذكرت أنه مدفون بالقرب من هذا المكان ، فهل تعرف قبره ؟» ، فتنهد عامر ، وقال : « نعم يا سيدتى .. إنى أعرف قبره ، وأظن أن رئيس هذا الدير يعرفه أيضا» .

فقال عبدالرحمن : « اعلمى يا سلمى يا بنت عمى وخطيبتى، ويا أملى.. اعلمى – رعاك الله – أنه لن يهنأ لى عيش حتى أنتقم لوالدك، فإذا أنا لم أوفق فلن آسف على حياتى» .

فصاحت فى حياء : «وما الفائدة من بقائى إذا أنت أصبت بسوء» .

حقيقة الحال

سلمى ولدت فى الكوفة قبل مقتل والدها بثمانى سنوات ، فعهد بها إلى امرأة عامر ترضعها وهى عند زوجها فى البادية . وكانت تلك عادة المتحضرين من العرب ، إذا ولد لهم مولود عهدوا برضاعته إلى بعض نساء البادية . فربيت سلمى فى رعاية عامر ثمانى سنين وهى لم تر والدها ، فلما سيق والدها إلى مرج عذراء سنة ٥١ للهجرة فى جملة من سيق – كانت والدتها قد ماتت ، وكان آخر ما أوصى حجر به إلى عامر العناية بها وأن يتخذها ابنة له ، وأن يزوجها بعبد الرحمن، ولكن بعد موت معاوية بن أبى سفيان.. فظلت فى رعايته حتى شبت.

وكانت كثيرا ما تسأله عن والدها فيكتم خبر مقتله ، حتى حدث منذ عامين أن ذكر الناس خبره أمامها .. فاستوضحته الأمر ، فباح لها عامر بكل شىء، فثارت حميتها وعزمت على الانتقام .

أما عبدالرحمن فهو ابن عمها .. ربى معها فى تلك البادية ، وقد عقدت خطبتها عليه منذ أن كانت فى المهد .. فشبا معا منذ كانا طفلين. ولما مات والده وهو طفل أصبح عامر كفيله ، فلما أدرك وسمع بمقتل عمه حجر. عول على أن يثأر له . وكان كسائر قبيلته بنى كنده ، لايرون لمعاوية حقا فى الخلافة . فشب هو وابنة عمه على كراهية الأمويين وحب آل البيت . وكان معاوية لايزال حيا ، والناس يتوقعون موته ليبايعوا الإمام الحسين بن على بن أبى طالب بعد قتله .

فصبر عبدالرحمن على ما فى نفسه ، وقد نزل هو وعامر الحجاز ومعهما سلمى .. وأقاموا فى المدينة فى منزل الإمام الحسين زمنا ينتظرون ما يأتى به القدر .

وقضت عليهم الظروف قبيل وفاة معاوية أن يعودوا إلى الكوفة ، فوصلوها وقد مات معاوية .. وجاء الخبر بمبايعة ابنه يزيد فأقسم عبدالرحمن ألايقيم أفراحا قبل أن يقتل يزيدا ، ووافقته سلمى على ذلك وعامر لايبدى اعتراضا ..

وفى ذات يوم ، ودع عبدالرحمن سلمى وعامرا وأخبرهما أنه سيذهب إلى دمشق ليبر بقسمه .. فاستمهلاه ، فلم يصغ . وأخيرا ودعهما وخرج قاصدا دمشق ، وفى مساء يوم سفره اشتد قلق الفتاة ، فلم يهدأ لها بال حتى لحقت به هى وعامر وقد احتالا بتجارة التمر . فالتقيا به قبل الغوطة بقليل ، فساءه ذلك ولامهما على مجيئهما .. ولكنه لم يجد حيلة إلى ردهما ، فجاءوا معا إلى الدير .

وبعد مادار بينهما من الحديث ، قالت سلمى :

«لابد لنا من تدبر الأمر بالحكمة .. أما قتل يزيد بين رجاله وجنده فتهور لا نرضاه لك ، ولا هو مستطاع» .

فلما قالت ذلك رجع عبدالرحمن إلى صوابه ، قال :

«إنك تنطقين بالحكمة .. ولكننى رأيت رأيا سأعرضه عليكما وأظنكما توافقانى عليه» .

قال عامر : «وماهو ؟» .

قال : «إن يزيدا لايلبث أسبوعا حتى يخرج للصيد لأن له به ولعا شديدا ، فيخرج بحاشية كبيرة ، وأظنه سيقصد هذه الغوطة لكثرة مافيها من الطيور والغزلان .. وأعرف قرية قريبة من هذا المكان يقال لها «جرود» يكثر فيها حمار الوحش ، ويزيد مولع بصيد هذا الحيوان أيضا .. فإذا أوغل فى الصيد خرجت إليه متنكرا أرقب انفراده ، فأرميه بنبل أو أطعنه بخنجر» .

فقالت سلمى :

«وعلى الله التدبير .. ولكننى أتقدم إليك يا عماه أن تدلنا على قبر والدى فنزوره وأسمع خبر مقتله بالتفصيل» .

فقال :

«إن القبر يا ابنتى على مسافة ربع ساعة من هذا الدير تحت شجرة من الجوز كبيرة ، ولكننا لانستطيع الذهاب

إليها إلا ليلا لئلا يرانا الرئيس أو غيره » .

الخروج من الدير

فتحول عامر إلى عبدالرحمن وسلمى ، وقال لهما :

«هلم بنا ننزل إلى الغوطة نتمشى بين أشجارها» .. فنزلوا، وقف عامر .. فوقفا فى أثره ، فإذا به قد التفت إلى سلمى وأشار بيده إلى أكمة كوم من التراب وقال :

«هذا هو ياسلمى قبر والدك» ..

وما أتم كلامه حتى ترامت على ذلك التراب وجعلت تقبله وتبكى وتصيح :

«وا والداه .. هذا هو ترابك ، فأين أنت ؟ أين أنت ياحجر بن عدى ؟» ، وانخرطت فى البكاء. أما عبدالرحمن فتقدم حتى وقف بجانب سلمى وقال :

«لاتبك يا سلمى .. إن البكاء لايجوز على ميت سننتقم له فى الغد» .

حجر بن عدى

ومضى عامر يحدثهما عن مقتل صاحب القبر فقال :

«اعلمى يا سلمى أن والدك كان من أقوى أنصار الأمام علىّ ، وقد حارب معه حروبا كثيرة وجاهد عنه بسيفه ولسانه جهادا إلى آخر نسمة من حياته . فلما قتل الإمام علىّ صار أمر الخلافة إلى معاوية بن أبى سفيان فى دمشق .. ظل والدك من أنصار على، وعلى دعوته . ولكن استفحل أمر بنى أمية . وكان والدك يقيم فى الكوفة مع قومه ينادى بحبه عليا على رءوس الأشهاد .

كان معاوية يحط من كرامة على وسائر أهل البيت ، فكان يأمر الناس أن يلعنوه . فمنهم من يطيع خائفا ، ومنهم من لم يكن يفعل .. وفى مقدمة هؤلاء والدك حجر وبعض رفاقه» .

وكان عامر يتكلم وسلمى وعبدالرحمن شاخصان بأبصارهما

وقلباهما يكادان يشتعلان . فلما بلغ إلى هذا الحد صرخت سلمى قائلة :

«ويل لقساة القلوب قتلة الأبرياء» !..

فوقف عبدالرحمن واستل خنجرا وقال وهو ينظر إلى القبر : «اعلم ياعماه ، أنى منتقم لك بحد هذا الخنجر قريبا إن شاء الله» ..

ووقف عامر يقول :

«سر يابنى وتوكل على الله وثق به ، وقد سمعت قوله تعالى :

«وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم» .

وتحولوا جميعا نحو الدير .. فمشوا معظم الطريق ، وعامر يفكر فى باب الدير ومن يفتحه لهم.

الناسك

حتى إذا أشرفوا على مدخل بستان الدير شاهدوا شبحا قادما نحوه من الجانب الآخر . وفيما هم يتفرسون فيه قالت سلمى :

«هذا هو الشيخ الناسك بعينه ، فعجبوا من نشاطه وخفته .. بعد أن أدرك باب البستان وعالجه بأداة فى يده حتى انفتح ، فدخل ووقف ينتظر وصولهم .. فاستغربوا عنايته بذلك ، ولم يفهموا السبب الذى حمله على هذا العمل . ولكنهم عزوه إلى غرابة طباعه، فأسرعوا إلى غرفتهم يلتمسون النوم بعد المشقة وطول السهر.

الخروج للصيد

وبالرغم من تعبهم لم تغمض أجفانهم إلا قبيل الفجر ، لما ثار فى خواطرهم تلك الليلة .. على أنهم لم يكادوا ينامون حتى أفاقوا على ضوضاء الرهبان فى ساحة الدير .. فنهضوا مذعورين ، وخرج عامر للبحث عن السبب ، ثم عاد والدهشة تعلوه .. فابتدرته سلمى بالسؤال عن سبب دهشته .. فقال بصوت خافت :

«إن أهل الدير يستعدون لاستقبال يزيد بن معاوية. «لأنه ذاهب إلى الصيد فى هذا الصباح .. ومن عادته إذا مر بهذا الدير أن يستريح ساعة

وينصرف» .

ولم يتم عامر كلامه حتى اختلج قلب عبدالرحمن.

فقال : «هل أنت واثق ياعماه مما تقول ؟.. وهل نرى يزيد فى الدير اليوم ؟» .

قال :

«إنه خارج إلى الصيد لا محالة .. وسيمر من طريق بقرب هذا الدير ، ويغلب على الظن أنه يعرج عليه ويقيم فترة» .

فقال عبدالرحمن :

«وهل يقيمون طويلا فى الصيد ؟» .

قال :

«ربما أقاموا أسبوعا أو شهرا أو بضعة أسابيع» .

فقال عبدالرحمن :

«وما الحيلة فى مكان نستتر فيه ؟» .

قال عامر :

«دعوا ذلك إلىّ» وخرج إلى رئيس الدير، فصعد إليه وحياه .. فرحب به الرئيس. وقال عامر: «قد بلغنى أن مولانا الخليفة يحبكم ويحترمكم وأنه سيأتى إليكم فى الدير. وأرانى كثير الشوق إلى مشاهدة ذلك المشهد ، وابنتى أكثر منى إليه شوقا .. ولكننى لا أدرى كيف أستطيع أن أريها إياه من غير أن يراها أحد» .

فقال الرئيس :

«هذا أمر هين يابنى .. فإنى أقدم لكم غرفتى فوق السطح» ، وخرج عامر وعاد ومعه رفيقاه فدخلوا الغرفة ولها نافذتان .. فأطلوا على البستان يستطلعون موكب الخليفة قبل وصوله .

يزيد وابن زياد

ولم يكادوا يشتغلون بذلك ، حتى تبين لهم من بين الأشجار خيول قادمة من ناحية دمشق فى هيئة موكب يتقدمه فارس بلباس زاه وعلى

رأسه عمامة صغيرة.

فعلم عامر لأول وهلة أن الفارس الأول هو يزيد بن معاوية ..

فقالت سلمى :

«من هو هذا الفارس يا عماه ؟ .. لعله الخليفة المزعوم !..» .

قال :

«يظهر من لباسه أنه هو بعينه» .

ولما اقترب الموكب من الدير خرج الرئيس والرهبان لاستقبال الخليفة الذى دخل أولا وإلى جانبه رفيقه ووراءهما بقية الحاشية ، فمشوا فى البستان وعامر يتفرس فيهم ، وسلمى وعبدالرحمن ينظران إلى عامر .. فرأيا وجهه والتفت إلى سلمى فتنهد وقال :

«يا للعجب سبحان جامع الأشباه والنظائر .. أتعلمين من هما هذان ؟» .

قال :

«أما الأول صاحب الحلة الأرجوانية الذى تريان وجهه عليه أثر الجدرى، فهو يزيد بن معاوية الذى يسميه أتباعه أمير المؤمنين خليفة رب العالمين والخلافة بريئة منه . وهو كما تريانه شابا حسن الصورة لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ولم يغير الجدرى شيئا من جماله . أما رفيقه الماشى مرحا ، فإذا اقترب منكما شممتما رائحة المسك ، وهو عبدالله بن زياد» .

فلما ذكر اسمه ارتعدت سلمى ، وقالت :

«لعل إياه هو الساعى فى قتل أبى ؟!» .

قال :

«هو .. هو بعينه» .فقال عبدالرحمن :

«يا للغرابة قد اجتمع القاتلان .. ولكن سيقتل كلاهما إن شاء الله» .

ولم يكد يقترب يزيد ورفقاؤه من الدير ، حتى وصل أتباعهم

ودخلوا البستان، وأخذت سلمى تستفهم عن الجمع المحتشد .

فابتدرها عامر قائلا :

«إننا ياسلمى أمام مشهد بديع . ولذا فإني أقص عليك خلاصته .. اعلمى أن الخليفة خارج للصيد ، وربما أوغل فى الغوطة وأقام فى سفرته أسابيع عديدة – كما قلت لك قبلا – وهو مولع بالصيد ولعا شغله عن مهام الخلافة . ولا يقتصر فى صيده على نوع من أنواع الحيوان ، بل هو يصطاد الطيور والظباء والأرانب وحمر الحش وغيرها .. وهذا هو السبب فى كثرة هذه الحاشية» .

وكانت سلمى مصغية تسمع حكاية الصيد وهى تعرف شيئا منه، فلما وصل عامر إلى هذا الحد ، ظهر من نغمة كلامه أنه يهم بإقفال الحديث ..

الضيافة

فأشمأزت سلمى مما سمعته عن يزيد وقالت: «هل إلى هذا الحد بلغت حال الخلافة. أين ذلك من عصر الخلفاء الراشدين وقد كانت أثوابهم من النسيج الغليظ، ونعالهم وحمائل سيوفهم من الليف، يمشون فى الأسواق كبعض الرعية؟ الله ياعمر يا ابن الخطاب .. الله الله ياعلى بن أبى طالب، ويا أبا بكر الصديق. أين الزهد والتقوى؟ أين العدل والقسط؟ أين الحزم والعزم؟ أين العلم والفضل؟ أواه .. واأسفاه على الإسلام والمسلمين..» فابتدرها عبدالرحمن للحال، وقال:«لاتندبى يا سلمى ان وقت النجاة قريب..

فتنهدن سلمى وأطرقت، وكأن قلبها قد دلها على خطر يهدد حبيبها، ولكنها ظلت صامتة .. وبينما هم فى ذلك إذا بنباح ساحة الكلاب قد علا فى الدير، وفيه عواء شيبوب كلب الرجل الناسك.

فتحولوا إلى النافذة المطلة على تلك الساحة .. فرأوا الخليفة ورجاله جلوسا على سجاد فرشوها لهم تحت الصفصافة، وبين أيديهم أطباق الفاكهة .. والرهبان وقوف بأقداح الماء الحلى بالسكر وأنواع

الأشربة الحلوة التي يستخرجها الرهبان من الثمار وفيها أصناف الخمور المستخرجة من العنب والتفاح والبلح.

وكان الرئيس جالسا باحترام بين يدى يزيد، وبيده قدح من الفضة يقدمه له ليشرب .. على أن عواء الكلاب كاد يصم آذانهم وسبب عوائها أن يزيدا لما دخل باحة الدير، تبعته كلابه وعليها الألبسة والأساور كما تقدم، وكان شيبوب وصاحبه نائمين على دكة فى أحد جوانب الساحة .. فلما شعر الشيخ بمجيء يزيد ارتعدت فرائصه، فهرول وانزوى فى زاوية من الدير، ولم يدع شيبوبا لمرافقته، فظل الكلب متكئا حتى دخل يزيد وانتشرت كلابه تحت الصفصافة، واشتم شيبوب رائحتها فكان أشد نفرة من صاحبه، فأخذ فى النباح.

فلما طال بالكلاب العواء ولم تسكت، أمر الرئيس بعض الرهبان أن يطرد شيبوبا من ذلك المكان.. فانتهره فركض إلى السلم وصعد إلى السطح، فلما رأى سلمى ورفيقيها .. نبح وحمحم بصوت الاستئناس ودنا من سلمى وقد أرخى أذنيه وهز ذيله، فاستأنست هى به وجعلت تمسح رأسه بيدها وهو يدنو منها..

النظرة الأولى

عادت سلمى إلى التطلع من النافذة، وأهل الساحة مشتغلون بملاطفة أمير المؤمنين، وكلابهم لاتزال تنبح بقوة، فلم يكن من شيبوب إلا أنه أجابها بنبحة. واستلفتت انتباه الجالسين تحت الصفصافة .. فالتفت بعضهم إلى جهة الصوت، وفى جملة الملتفتين عبيد الله بن زياد رفيق الخليفة وصديقه .. فوقع بصره على وجه سلمى فلم يستطع سوى الإعجاب بجمالها وهيبتها، فأثارت عواطفه وشعر بجاذبية نحوها.

أما هى، فلحظت انتباه الناس لنباح شيبوب، والتفات بعضهم نحوها، ووقوع نظر ابن زياد عليها.. فهرعت إلى الداخل وقد غلب عليها الحياء، وكان عامر وعبد الرحمن قد شغلا عن النافذة بحديث

بينهما. فلما عوى شيبوب وتحولت سلمى عن النافذة التفتا إليها فإذا وجهها قد انصبغ بحمرة الحياء وظهر عليها الاضطراب، فابتدرها عبدالرحمن بالسؤال عما حملها على ذلك، فأظهرت عدم الاكتراث وقالت: «إن نباح هذا الكلب قد استلفت أنظار بعض الجالسين بين يدى الخليفة فتطلعوا إلى النافذة».

وكان عبيدالله بن زياد قد افتتن بسلمى بمجرد تلك النظرة.

ولم يبق له صبر عن رؤيتها، ولكنه لم يجسر على ذلك والخليفة معه .. فعزم على أن يسرع فى العودة من الصيد، بحيلة يخترعها ليزيد، وعند عودته يعرج على الدير وحده ويبحث عن تلك الغادة الفاتنة.

على أنه لم يستطع أن يصبر عن سؤال الرئيس خلسة عن السكان، فاضطرب الرئيس بعدما كان قد سمعه من ضيفه الأبرص من خطورة أمر أولئك الضيوف، فلما سمع ابن زياد يسأله عنهم، خفق قلبه خوفا وجزعا ولكنه تجلد وأجاب بسذاجة قائلا: «إنهم يامولاى رجل وابنه وابنته، وهم من أهل العراق نزلوا ضيوفا علينا ولايخفى على مولاى أننا مكلفون بقبول ضيافتهم لأنهم مسلمون .. فأنزلناهم عندنا وقمنا بخدمتهم عملا بعهد الخليفة عمر بن الخطاب، وهو يقضى علينا بالقيام بضيافة من ينزل علينا من المسلمين ثلاثة أيام».

فقال عبيد الله: «حسنا فعلت» واطمأن باله عندما عرف أنهم مسلمون، وترجح لديه أن تلك الحسناء عذراء، ولكى يتأكد من ذلك قال مغالطا: «ألم تقل إن الثلاثة: رجل وامرأته وابنه؟»

قال: «كلا يامولاى .. وإنما هم رجل وابنه وابنته. واللابنة فتاة لا زوج لها».

فازداد اطمئنان عبيد الله، ولكنه خشى إذا طال غيابه أن تخرج سلمى من الدير فلا يعود يظفر بها، فقال للرئيس: قال: «أوصيك باستبقائهم ريثما أعود».

فقال: «سمعا وطاعة»

وكان يزيد قد تحفز للقيام، فبادر عبيد الله إلى الغلمان فأمرهم بالتأهب للمسير .. فمشى يزيد وحوله حشد من الحشم ومعهم الحراب يحرسونه ريثما يمتطى جواده. وكان الخلفاء الراشدون لايتخذون الحشم أو الحرس، وإنما كانوا يسيرون منفردين كعامة الناس. وإذا صلوا فى الجوامع صلوا أمام الناس، فلما قتل الإمام على فى المسجد بالكوفة، رأى معاوية بعد نجاته من عواقب تلك المؤامرة واعتلائه كرسى الخلافة أن يبنى لنفسه مقصورة فى الجامع يصلى فيها منفردا، خوفا مما أصاب عليا .. وإذا سجد وقف على رأسه الحراس بالسيوف، وإذا مشى أو جلس فى مجلسه قام الحشم بين يديه بالحراب، وهو أول من فعل ذلك، ثم أصبح قاعدة لمن جاء بعده من الخلفاء أولهم ابنه يزيد هذا. فخرج يزيد بحاشيته من الدير والرئيس يشيعهم إلى البستان – مع رهبانه – حتى ركبوا، وهو يدعو لهم بالسلامة.

أما عبيد الله، فإنه خرج وقلبه يخفق بحب سلمى..

الحب والانتقام

أما سلمى، فإنها نزلت هى ورفقاؤها بعد انصراف الضيوف حتى بلغوا غرفتهم .. وعبدالرحمن ساكت لايتكلم، وقد أدرك عامر وسلمى ماجاش فى خاطر عبدالرحمن من أمر الانتقام. فلما وصلوا إلى الغرفة هموا بالجلوس، إلا عبدالرحمن فإنه ظل واقفا والقلق ظاهر على وجهه .. فتجاهلت سلمى حاله ودعته للجلوس، فقال: «أتدعينني للجلوس وقد أزفت الساعة التى نحن فى انتظارها منذ أعوام؟!».

فاختلج قلبها فى صدرها لما تخافه عليه من الخطر الشديد بعدما شهدت من كثرة تلك الحاشية ومعهم العدة والسلاح، وقالت: «دعنا من الانتقام ياعبدالرحمن، فإن الساعة لم تأت بعد»

قال: «وكيف ذلك .. وهذا يزيد خارج للصيد بكلابه وفهوده؟»

قالت: «ذلك هو الأمر الذى أخافه عليك .. بالله لا

تلق بنفسك إلى التهلكة»

قال: «لقد عزمت وعولت .. وإنى أتوكل على الله» قال ذلك وهو يبحث عن خنجره ويصلح ثيابه ويتأهب للخروج

فأمسكت سلمى بذيل ثوبه، وقد توردت وجنتاها وغلب عليها الحب والحياء معا، وقالت: «قف بالله لاتذهب .. إنى خائفة عليك من هذا الأمر العظيم، إنك فرد وهم جماعة».

فقال: «دعينى .. إنى لا أبالى مهما يكن من كثرتهم، وقد صممت على الانتقام وهذا وقته، فلا تثنينى عن عزمى»

فقالت: «لا .. ليس هذا وقت الانتقام، فلا تذهب الآن»

قال: «إنى لا أرى فرصة أحسن من هذه .. دعينى ياسلمى . دعينى أقتل هذا الرجل وأنقذ المسلمين من خلافته، وأنتقم لحجر بن عدى»

فقالت: «إذا لم يكن بد من الذهاب، فدعنى أذهب معك.. فإما أن نقتل معا، أو ننجو جميعا».

قال: «أليس عارا على أن أصطحب ملاكا لسفك الدماء؟.. دعينى ياسلمى..» وحاول التملص منها، فإذا هى مسكة ثوبه بيدها . فغضب وأراد أن يتخلص بالعنف، ثم نظر إلى وجهها فرأى الدموع تتساقط من عينيها .. فسكن غضبه ووقف وهو ينظر إليها بعين المحب وقال لها: «ما هذا ياسلمى؟ ما الذى تفعلينه؟.. إنك تضعفين عزيمتى وتحملينني على الجبن. ما الذى يدعوك إلى ذلك؟».

فقالت وهى تجهش بالبكاء: «ألا تدرى ما الذى يدعونى إلى ذلك؟ هو الحب ياعبدالرحمن» .. وابتدرها وهو يتجلد، وقال: «صدقت ياحبيبتى.. أن الحب حلو .. ولكن الانتقام ياسلمى أحلى منه .. دعينى أخرج إلى هذا الرجل الذى يسمى نفسه أمير المؤمنين، فأقتله بهذا الخنجر وأنتقم لك ولى، وأنقذ المسلمين من خلافته..»

فقطعت كلامه، وقالت: «لاتذكر الموت ياعبدالرحمن.. إن ذكره يؤلمنى ويؤذينى، حماك الله من شره»

قال: «يؤلمك ذكره وقد ذاقه قبلي من هو أكرم عند الله مني، ذاقه الإمام علي، وذاقه والدك حجر بن عدي، وذاقه كثيرون غيرهما في سبيل نصرة الحق .. فما أنا خير منهم، وقد آن وقت الانتقام»

فوقف عامر يخاطب عبدالرحمن بسكينة وهدوء، قائلا: «تمهل يابني وارفق بنا .. وأعلم أنك إن أصررت على الذهاب، دعني أسير معك، لعلي أنفعك في جهادك فالتفت عبدالرحمن إلى عامر، وقال: «وأنت أيضا ياعماه تثبط عزيمتي؟ ألم نسمع الهاتف فوق قبر حجر: «وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم» أترى بعد ذلك مجالا لقائل».

الإصرار

ملّ عبدالرحمن الجدل، فقال: «لقد ضيقتما عليَّ السبل، وأنا لا أرى وقتا أنسب من هذا للقيام بعهدي»، ثم التفت إلى سلمى وقد هاجت أشجانه، فقال: «ويكفيني ياسلمى أن يكون تأجيل قتل هذا الرجل باعثا على تأجيل زواجنا، ألم أجعل قتله شرطا لإتمام زفافنا؟، ألم أعاهد نفسي على ذلك؟، فاتركيني وادعي لي فإن دعاءك من دعاء الملائكة لأنك ملاك في صورة إنسان»

قال ذلك واختنق صوته فسكت .. وهو ينظر إلى سلمى وظل الجميع ساكتين على تلك الحالة.. وعبدالرحمن يغالب عواطفه، فقال بصوت هادىء: «لا أجهل ياسلمى أني أنطلق إلى أمر ذي خطر عظيم .. ولكنك تعلمين أننا إنما قطعنا البراري والقفار وجئنا إلى هذه الديار، ولا غرض لنا غير الانتقام.. أم صدقتما أننا جئنا للاتجار بالتمر والجمال؟.. ما جئنا إلا للقتل، فهل يليق بنا أن نرجع إلى الوراء، إنما أسعى في استئصال شجرة فاسدة. اني أسعى في إنقاذ الإسلام من فساد تولاه، ولا علاج له غير القطع .. فإذا قتل يزيد عادت الخلافة إلى حبيبنا سيد شباب المسلمين الإمام الحسين ابن بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فاتركاني أمضي لسبيلي، فقد توكلت على الله في أمري،

وما الموت الذي تخافانه عليَّ إلا سنة الله في خلقه، وإذا فزت وحييت، فإني أحيا سعيدا .. وسلمى زوجتي، والحسين مولاي وخليفة المسلمين، كفانا ترددا وجبنا».

فلم يبق ثمة مجال للدفاع، فقال عامر: «دعيه ياسلمى.. دعيه، إن الله دعاه إلى عمل صالح واختاره دون سائر المسلمين».

فظلت سلمى صامتة.

الضيف الأبرص

قال عبدالرحمن: «إني ذاهب الآن في أثر هذه الحملة إلى حيث ينزلون لصيدهم، فاختبيء في بعض الأماكن حتى أنفرد بيزيد فأقتله «ان شاء الله» و وامكثا أنتما هنا في انتظاري بقية هذا النهار وطول ليله، فإذا جاء مساء الغد ولم أعد إليكما فإني لا أدري أين أكون ...»

ومضى قائلا: «أظنني بعد قتل الخليفة إلا مضطرا للاختفاء، فلا أستطيع دخول هذا الدير»، ثم قال: «ولكنني أرسل إليكم علامة، فسأرمي إليكما بسهم أكتب بين ريشتيه اسم المكان الذي نلتقي فيه، فإذا جاء غروب الغد، انتظرا سهمي على سطح هذا الدير. ولن أذكر لكما بين الريشتين غير اسم المكان، فلا خوف منه إذا وقع في أيدي الرهبان»

وتقلد عبدالرحمن قوسا صغيرة وسهاما وتقلد الخنجر، ولبس ثوبا يشبه ثياب بعض أتباع يزيد، وكانت سلمى في أثناء ذلك تنظر إليه وقلبها لايطاوعها على مفارقته، فلما أتم الاستعداد وهم بوداعها، خفق قلبها، فأسرع ففتح الباب وخرج من باب الدير، فاصطحبت عامرا والتمست سطح الدير لكي تشيعه ببصرها فرأيا عبدالرحمن قد قطع البستان حتى خرج من بابه وهو لايلتفت يمنة ولا يسرة.

وفيما هما ينظران إليه من خلال الأشجار، رأيا رجلا ملثما خرج من الدير وسار في أثره .. فلم يعرفاه ولا اشتبها فيه لخلو ذهنهما من أن رقيبا يراقبهما هناك.

وما كان ذلك الملثم إلا الضيف الأبرص الذى جاء إلى الدير بالأمس، واختبأ فى إحدى الغرف، وكان قد رافقهم خلسة منذ خرجا من الكوفة لغرض فى نفسه.

البكاء

دخلت سلمى غرفتها، وقد أظلمت الدنيا فى عينيها، فأطلقت العنان لدموعها .. وكأن نفسها حدثتها بما سيلقاه عبدالرحمن من الخطر، فظلت تضطرب بين اليأس والرجاء وعامر جالس وقلبه منقبض ثم تركها فى الغرفة وخرج ليخلو إلى نفسه، وإذا به يرى شيبوبا تحت الصفصافة.. فتذكر الشيخ الناسك وما توسم فيه من الغرائب، فخطر له أن يذهب إليه لعله يسمع منه كلاما يطمئنه على عبدالرحمن، ثم خطر له أن يصطحب سلمى لتشاركه فى ذلك الاطمئنان، ففتح الغرفة فرآها استيقظت فابتدرها قائلا: «هلمى بنا إلى الشيخ الناسك نجلس إليه، عسانا أن نسمع من بشارة، إنى والله أعتقد الكرامة فى أمثاله».

فارتاحت نفس سلمى لذلك الرأى .. ووقفت للحال وقد انبسط وجهها وقالت: «هيا بنا إليه، أين هو؟»

قال: «أظنه فى أحد جوانب الدير.. فقد رأيت كلبه الساعة تحت الصفصافة، فلا يبعد أن يكون هو فى زاوية من زوايا الدير» ..

الكهف

قال ذلك، وخرجت هى فى أثره.. فلما أطلا على الساحة رآهما الكلب فهرول إلى سلمى وهو يحرك ذيله ويغمغم استئناسا بها وذهب عامر للبحث عن الناسك، ثم عاد وهو يقول: «سألت فى كل أطراف الدير فلم أقف له على أثر، وقال لى الرئيس إنه خرج منذ كان الخليفة هنا ولم يعد».

قالت: «هل تظنه فى أحد جونب هذا البستان؟»

قال: «ربما كان هناك .. هلم بنا إليه»

فمشيا حتى خرجا من باب الدير، فوقفا يتطلعان إلى جوانب البستان وكان الكلب قد خرج فى أثرهما، ثم رأياه يهرول نحو اليسار وأمعن فى مسيره، فقالت سلمى: «يظهر أن شيبوبا اشتم رائحة صاحبه .. فلنذهب فى أثره».

وتبعاه .. فإذا هو قد انتهى إلى جميزة قديمة العهد، فى أسفل ساقها كهف يشبه غرفة صغيرة، أوى إليها الناسك. ورأياه عن بعد جالسا، فلما وصل الكلب إليه وجعل يلحس يديه، انتبه الشيخ من غفلته.. فرفع عينيه، فوقعت عيناه على سلمى وعامر، فجعل يتفرس فيهما وهما قادمان إليه يفكران فيما يبدآن به الحديث. ولم يكادا يبلغانه، حتى سمعاه يقول: «أين عبدالرحمن ؟..»

فلما سمعت سلمى اسم حبيبها خفق قلبها ولم يكن عامر أقل بغتة منها، فلم يعلما بماذا يجيبانه..

ولم يصلا إليه حتى وقف بخفة ورشاقة كأنه شاب فى عنفوان الشباب، وصاح فيهما: «أين عبدالرحمن .. أين ذهب؟..» فاقشعر بدن سلمى واستغربت معرفته عبدالرحمن، فأجابه عامر قائلا: «وأى عبدالرحمن ؟»

قال: «أتسألنى ياعامر عن عبدالرحمن وأنت كفيله؟.. قل أين ذهب ؟ .. وقد كان معكم بالأمس..»

فقال: «إنه سار فى مهمة.، إذا كانت فيك كرامة عرفتها من تلقاء نفسك»

قال: «أظنه ذهب وراء يزيد بن معاوية الذى يسمونه الخليفة». فقال عامر: «نعم ياسيدى..» فضرب الناسك يدا بيد، ونظر إلى السماء وقال: «حماك الله ياعبدالرحمن من ذلك الخائن المنافق..كيف تركتماه يذهب تحت الخطر العظيم».

استطلاع الغيب

فلما سمعت سلمى كلامه، ترامت على قدميه وصاحت: «قل

ياسيدى .. قل لى بالله ماهو ذلك الخطر؟..»

قال: «الخطر عليه من ذلك الأبرص الذى خرج فى أثره»

قال عامر: «وأى أبرص يامولاى ..»

فرفع الناسك طرف ثوبه حتى غطى رأسه، ثم قال: «ألا تعرفان ذلك الأبرص؟ ألا تعرفان شمر بن ذى الجوشن؟»

فقالا بصوت واحد: «بلى نعرفه .. وأين هو؟»

قال: «إنه خرج فى هذا الصباح من هذا الدير ملثما بعد خروج يزيد، وأظنه رأى عبدالرحمن خارجا فاقتفى أثره ليوقع به».

فالتفتت سلمى إلى عامر، وقالت: «تبا لذلك الخائن .. أظنه أقتفى أثرنا من الكوفة وقد علم بالغرض الذى جئنا من أجله إلى الشام .. تبا لك ياشمر ياخائن» ثم التفتت إلى الشيخ وقالت: «ماذا نعمل الآن ياسيدى؟.. يظهر لنا أنك من الأولياء ذوى الكرمات» قالت ذلك وقلبها يخفق، وعامر ينظر إلى ذلك الناسك نظر الاستغراب لايدرى كيف يفسر فراسته، ولكنه شغل بأمر الخطر المحدق بعبد الرحمن فقال له: «إننا نراك ياسيدى تخاطبنا بالرموز والألغاز، فما هو خبر عبدالرحمن، وما الذى ذهب من أجله؟»

ولم يتم عامر كلامه حتى قهقه ذلك الشيخ، ثم انقطعت القهقهة بغتة، وقال: «هل تختبرنى ياعامر؟.. ولكن لأمر الذى جئتم من أجله لهذه الديار لايخفى على هذه الأحجار، ولا جئتم من أجله لهذه الديار لايخفى على هذه الأحجار، ولا على هذه الأشجار .. وإذا لم تصدقانى أسألا الهاتف الذى كلمكم من الجوزة، ألم يقل لكم: «وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم».

أما عامر فهم بيد الشيخ وأراد أن يقبلها.

فقال له عامر: «بالله أيها الشيخ الجليل ألا كشفت عن وجهك وأفصحت عن نفسك».

فزجره الشيخ وقال: «تأدب يا عامر، ولا تتطاول إلى ما لايعنيك ..

ويكفيك ما علمته من أمر ابن ذى الجوشن الأبرص، وما يبتغيه من إدراك عبدالرحمن».

فخافت سلمى أن يغضب الناسك منهما إذا أكثرا من السؤال فقالت: «لاتغضب ياسيدى ولايسوءك سؤالنا وأنت تعلم حالنا بعدما ظهر من اطلاعك على أمرنا .. أنا سائلوك سؤالا واحدا لانريد عليه شيئا. هل تجيبنا عليه؟..»

فلم يزد على قوله: «هم هم» أى نعم..

فقالت: «هل ترى من بأس على عبدالرحمن فى رحلته هذه، وكيف نحتال لإنقاذه؟..»

فوجم الشيخ وسكت برهة، ثم قال: «أرجو ألا يكون عليه بأس بإذن الله لأنه قذف بنفسه فى سبيل مصلحة المسلمين. وهذا آخر ما أقوله لكما فلا تزيدا» قال ذلك وهرول مسرعا والكلب يجرى فى أثره نحو الغوطة.

الانتظار

فلما مالت الشمس إلى المغيب، تعلقت آمال سلمى بسهم عبدالرحمن، وخيل لها من فرط قلقها أنها ما تكاد تصل إلى السطح حتى ترى السهم ساطقا أمامها.. حثت عامر على الصعود معها فأطاعها، فوقفا على السطح ينظران إلى الأفق، وسلمى كلما لاح لها طائر ظنته سهما من حبيبها، وعامر يلاحظ حركاتها وعواطفها ولايبدى رأيا حتى آذنت الشمس بالزوال ولم يأت السهم.

فغابت الشمس وهما على السطح ولم يحدث شىء، فازداد بهما القلق وعامر يحاول طمأنة سلمى بحديث أو رأى وهى لاتطمئن وشاع بصرها بعد الغروب نحو الغوطة فى الطريق الذى سار فيه عبدالرحمن، لعلها ترى قادما تستأنس به فلم تر شيئا وأخيرا نهض عامر وهو يقول: «إن موعدنا ياسلمى إلى غروب الغد، ومن العبث بقاؤنا هنا الليلة..» قال ذلك ومشى، فمشت هى فى أثره.

باتا تلك الليلة، وكل منهما يفكر فى عبدالرحمن .. فإذا تصورا غروب الغد وسهمه لم يأت، تحيرا فى أمرهما وخصوصا سلمى، ثم صمم عامر إذا لم يعد عبدالرحمن أن يذهب هو وسلمى معا للبحث عنه.

ونهضت سلمى قبيل الفجر، وأيقظت عامرا وحثته على الصعود إلى السطح عسى أن يكون سهم عبدالرحمن قد وقع فى أثناء الليل، فصعد ولم ير شيئا فرجع .. فاستحثته بعد هنيهة على الصعود.. فما أن أشرقت الشمس حتى دعاها للصعود معه. وفيما هما صاعدان على السلم، شاهدا طائرا يحلق فى الجو ولا يحرك جناحيه، وكانت عادة العرب، إذا رأوا طيرا يحلق على تلك الصورة تشاءموا منه. وأدرك عامر تشاؤم سلمى. فابتدرها قائلا: «انزعى من بالك هذا الوهم، ودعى أمرك إلى الله» فسكتت وخاطرها لم يطمئن، ولكنها سايرته وصعدت معه.

ولما طال انتظارهما واشتد بهما القلق، تذكرا الشيخ الناسك وكانا لم يرياه منذ فر من بين أيديهما فى الأمس.

ولم يكن أطول من ذلك النهار على سلمى، فلما دنا الأصيل ولم يطمئن بالها أخذت تلوم نفسها .. وهى إلى ذلك الحين لم تذق طعاما فخارت قواها، ولكنها لم تشعر بالجوع لشدة القلق.

الوقوع في الفخ

وبينما هى غارقة فى بحار الهواجس، لمحت فارسا يركض فرسه بين الأشجار بالقرب من باب البستان.. فخفق قلبها والتفتت إلى عامر، فإذا هو ينظر أيضا إلى ذلك الفارس، ورأت رئيس الدير قد خرج مسرعا وهو يصلح عباءته وينظر إلى باب البستان، ثم أمر نائبه أن «ابعث راهبا ليفتح الباب لأنى أرى عبيد الله بن زياد قادما، فلعله جاء لينبئنا بقدوم الخليفة»..

فلما سمعت سلمى اسم ابن زياد ارتعدت فرائصها، وتفرست فى الفارس فرأته واقفا بالباب، هرول بعض الرهبان ففتحوا له .. وهمت

بمخاطبة عامر، فإذا هو يقول لها: «انزلى ياسلمى إلى غرفتك واستترى هناك، وسأبقى أنا هنا لنرى مايكون من أمر هذا القادم».

وكان الرئيس قد نزل إلى الباب واستقبل ابن زياد، ووقف معه برهة وهما يتكلمان همسا، ثم صعدا إلى السطح، ولبث عامر جالس وقد ندم على بقائه هناك. ثم رأى الرئيس وعبيد الله مقبلين نحوه. فقام إليهما محييا، فرد عليه عبيد الله التحية، ودعاه للجلوس، وأمر الرئيس بسجادة فرشت لهم على حصير فجلسوا عليها .. وعامر يعجب مما يبدو من مظاهـــر الترحاب.

فلما استقر بهم المجلس، بدأ الرئيس بالكلام قائلا: «لعل مولانا الخليفة قادم إلينا؟»

فضحك عبيدالله، وقال: «لا أظن مولانا يمر بكم اليوم».

قال الرئيس: «نعم .. إنه عائد إلى دمشق»

قال عبيد الله: «نعم .. إنه عائد الليلة»

قال الرئيس: «وما الذى دعاه إلى الرجوع من صيده عاجلا، وقد كنت أحسبه لايعود قبل أسبوع على الأقل؟»..

قال عبيد الله: «انه تشاءم من سفرته هذه .. فأحب الرجوع سريعا»..

فارتاب عامر فى أمر هذه العودة السريعة، ولم يعد يصبر على الكلام وهم بالاستفهام، فإذا بابن زياد يستأنف الحديث قائلا: «وقد نجا أمير المؤمنين من خطر عظيم. وكانت نجاته من ذلك الخطر سرا عجيبا، يرجع الفضل فيه إلى كلبه وإلى رجل من خاصتنا»

فقال الرئيس: «وكيف كان ذلك؟»

قال: «خرجنا من عندكم بالأمس .. فجاءنى فى المساء رجل أعرفه من الكوفة ونبهنى إلى غريب متنكر، يسعى إلى الفتك بأمير المؤمنين فى أثناء صيده .. فشكرت مسعاه ووعدته خيرا ولم أطلع الخليفة على

ذلك لئلا أزعجه .. فخرجنا للصيد ، وأوصيت جماعة من رجالنا الأشداء أن يقتفوا أثرنا ، ويتأهبوا للوثوب عند أول إشارة. وكان معنا كلب من كلاب الصيد يمتاز عن سائر الكلاب بسرعة جريه ونباهته ، وقد أحبه الخليفة حتى ألبسه الحرير وألبسه الأساور الذهب .. وفيما نحن على خيلنا بالقرب من غابة متكاثفة الأغصان ، نبح الكلب نباحا شديدا وأسرع أمامنا حتى أوغل بين الأشجار وهو يبالغ فى العواء ، فتعجبنا لأمره ومازلنا ندعوه إلينا وهو لا يطيع .. فتفرست فى أثر الكلب ، فما شعرت إلا وقد خرج لنا شاب ملثم فى يده خنجر طعن به أول قادم عليه ، ثم طعن الثانى والثالث ، واخترق الجميع وهو يلتمس الخليفة .. فأمرت الرجال أن يقبضوا عليه ولا يقتلوه ، فتكاثروا عليه .. فقتل منهم خمسة ولم يمسكوا به إلا بعد أن عثر بجذع شجرة ، فتجمهروا عليه وأوثقوه وساقوه إلى الخليفة ، وكنت قد سبقت إليه وأخبرته بخبره ، فأمر بارساله إلى دمشق .. وعدل عن اتمام الصيد وأمر بالرجوع ، فأسرعت قبله لغرض عند عمى هذا» وأشار إلى عامر.

كلب يزيد

فلما سمع عامر حديثه لم يبق عنده شك فى أن الذى قبضوا عليه هو عبدالرحمن بعينه .. وخاف أن يكون فيه بأس عليه ، إذ لا يبعد على الذى وشى بعبد الرحمن أن يشى بهم جميعا ، فاسودت الدنيا فى عينيه . ولكنه صمت فى صبر ، وتجلد والتفت إلى عبيدالله وقال : «مهما يأمر سيدى ، فأنى رهن إشارته» ..

قال : «لا أطلب منك شيئا يسوء ، ولكننى أحببت مصاهرتك .. فهل ترضانى لك صهرا ؟» .

فوقع ذلك الكلام على عامر وقوع الصاعقة ، فلم يدر بماذا يجيب ، فأراد أن يحتال فى جوابه . وقبل أن يبدأ الكلام ، رأى ابن زياد يقف فجأة وهو ينظر إلى البستان نظرة فاحصة وقد

أخذته البغتة . فالتفت عامر ، فإذا بالخيول تتزاحم عند باب البستان وعليها الفرسان وفيهم يزيد بن معاوية .. ثم رأوا يزيد يترجل وحده ، ثم يسرع على قدميه نحو الدير .

فبغت الرئيس ، وأسرع إلى ساحة الدير .. فرأى كلبا من كلاب الخليفة يدخل الباب وعليه الحرير والأساور كما وصفه ابن زياد . فلما رآه الكلب مهرولا نحوه ، انحرف عنه إلى جهة غرفة سلمى .. ووصل يزيد فى أثناء ذلك وسار فى أثر الكلب لأنه افتقده ، فعلم أنه دخل الدير . فجاء للقبض عليه بنفسه لأنه كان يحبه ..

وكانت سلمى فى غرفتها ، وباب الغرفة نصف مفتوح ووجهها مكشوف ، وقد استلقت على جنبها وسندت رأسها بكفها وفى يدها الأخرى منديل تمسح به دموعها .. وهى غارقة تفكر فى حبيبها وما هو فيه من الخطر الشديد .

وبينما هى على تلك الحال ، سمعت وسوسة الأساور فى قوائم الكلب ، ثم رأته داخلا غرفتها فتذكرت يزيد .. وهمت بالقعود ، وإذا بيزيد يدخل فى أثره ويناديه ، فارتعدت فرائصها ومدت يدها إلى النقاب لتستر رأسها ، فلم تدركه فأرسلت شعرها على وجهها.

فغمرت يزيد موجة من الإعجاب بجمالها وهيبتها، فقال لها بنغمة المحب : «لا تحجبى شمس وجهك عن خلق الله يا أجمل خلق الله» .

فظلت هى صامتة ، وقد جمد الدم فى عروقها من شدة الخجل ، فتحول يزيد من الغرفة وقد وقعت سلمى من نفسه موقعا عظيما . وكان عبيد الله بن زياد قد نزل إلى ساحة الدير والرئيس معه ، فرأى يزيد خارجا من غرفة سلمى وأمارات الإعجاب بادية فى عينيه فشعر بغيرة شديدة ، وخاطب الخليفة على سبيل المزاح قائلا : «أرى أمير

المؤمنين مشغولا بكلبه بعد الطريدة التى اصطادها له فى هذا الصباح» ..

فقال يزيد وهو يحاول الابتسام : «لكنه اصطاد لنا طريدة أخرى أجمل من تلك» .

فأدرك ابن زياد تلميحه إلى إعجابه بسلمى ، فازدادت غيرته ولكنه اضطر إلى الكتمان ، ونادى أحد الخدم فسلم إليه الكلب ، واستشار الخليفة فيما يراه من البقاء أو الرحيل .. فأشار بالرحيل ، ثم طلب الخلوة بالرئيس فتبعه الرئيس على انفراد .. وظل ابن زياد واقفا وعيناه تتبعان يزيد حتى توارى مع الرئيس.

فلما خلا يزيد بالرئيس سأله عن تلك الفتاة ، فأخبره أنها ابنة تاجر قدم من العراق منذ بضعة أيام .

فقال يزيد : «هل هى عذراء ؟»

قال : «أظنها كذلك يا مولاى» .

قال : «حسنا» ولم يزد .

ثم ركب يزيد هو وابن زياد معه ، وحاشيته ، وودعوا الرئيس وخرجوا .

فلما مضى يزيد ورجاله ، صعد الرئيس إلى السطح ، وفى وجهه ابتسامة دلت عامرا على شئ فى نفس الرئيس ، فتقدم إليه . وقبل أن يهم بالكلام ، قال الرئيس : «انى أبشرك بالسعادة يا بنى» .

قال عامر : «بماذا ؟ .. وكيف ؟»

قال : «لأنى رأيت أمير المؤمنين معجبا بابنتك» .

فوقع ذلك الكلام على عامر وقوع البلاء العظيم ، ولم ينطق بكلمة ، فلم يعد يدرى فيم يفكر ! .. أفى عبدالرحمن وقد وقع فى الأسر ، أم فى سلمى.

وبينما هى تفكر إذا بعامر قد فتح الباب ودخل .. فرآها على تلك الحال من القلق ، فلم يدر كيف يخاطبها .. فوقف

لحظة لا يتكلم. وفطنت هى إلى ما يبدو عليه من الكدر ، فقالت : «هل جاءت رسالة عبدالرحمن ؟ .. هل وصل إليك سهمه ؟» ..

قال : «نعم .. ولكنه وقع فى قلبى» .

فقالت : «ما الخبر ؟ .. أين عبدالرحمن ؟ .. هل قتلوه ؟

قال : «لا .. لم تصل يدهم إلى ذلك ، ولكنهم أسروه»

فلطمت خدها ، وقالت : «من أسره ؟ وكيف ؟ ..»

فجعل يقص عليها حديث ابن زياد ، ولم يذكر لها شيئا من أمر المصاهرة .

فلما فرغ عامر من كلامه ، عادت سلمى إلى البكاء ، وهى تقول : «قبحهم الله .. إنهم قبضوا عليه . هذا هو الذى خفته عليه .. ما العمل الآن ؟» ..

فلبث عامر صامتا .. فابتدرته قائلة : «قل يا عماه .. قل ما الرأى ؟..» .

قال : «لا تتعجلى يا سلمى .. تمهلى واستعينى بالله .. ولننظر فى الأمر على مهل» .

قالت : « كيف أتمهل وقد أسروا عبدالرحمن ، ولا أدرى ما الذى يحدث له هناك»

فقال عامر : أنزل غدا بأحمال التمر إلى دمشق أحتال بها على تسقط الخبر .

قالت : «لابد من الانتظار إذن .. فلنصبر ، إن الله مع الصابرين» ..

سلمى وشمر

فلما أصبحا ، هيأ عامر جماله ، وركب يلتمس دمشق .. وسلمى تدعو له بالتوفيق وقلبها يخفق خوفا على عامر أيضا.

وأخذت تبكى وفيما هى فى ذلك ، سمعت وقع أقدام خارج غرفتها وصوتا يشبه صوت الرئيس .. ثم سمعت قرع الباب، وما أن

فتحت الباب رأت الرئيس وشمر بن ذى الجوشن معه ، وقد تزينا بأفخر لباس ، وأصلح نفسه كأنه يستعد للقاء عروسه . فارتعدت فرائصها ، وحدثتها نفسها أن تبتدره باللعن والتوبيخ ، ولكنها خافت الفضيحة .. فتجلدت برغم اضطرابها .

أما الرئيس فلما رأى سلمى وحدها ، قال لها : «أين والدك ؟»

قالت : «أظنه ذهب بأحمال التمر إلى دمشق ، وما الذى تريده منه ؟» .

قال : «إن مولانا الخليفة بعث إليه بهذا الأمير للحديث معه فى شأن» .

فلما سمعت اسم الخليفة ورسالته خافت مما وراء تلك الرسالة ، ولكنها أمسكت عواطفها وأجابته بهدوء وسكينة : «ان والدى ليس هنا الآن» ..

فابتسم شمر ، وهو يحاول أن يتظاهر بالرزانة والاستخفاف ، وقال : «لا بأس من غيابه ، فإنى مكلف بتأدية هذه الرسالة إما له وإما لك» .

قال ذلك ودخل الغرفة ، وظل الرئيس خارج الغرفة .

وأما سلمى فظلت واقفة .. وقد اقشعر بدنها وخافت أن يبدو ذلك الاضطراب على وجهها ، فأسدلت عليه النقاب ، ولم تكشف عن شئ سوى عينيها . ولكن شمر قرأ فى هذين العينين أمارات الخوف. فلما خلا بها تظاهر باللطف ، وقال لها : «لا تخافى يا سيدتى ، ولا تظنى بى سوءا ..

ثم قال : «انى جاركم القديم ، وانى من أصدقاء والدك أو كفيلك عامر» .

فعلمت أنه يهددها بمعرفة سر وجودها ، ولمست أمارات الغدر فى وجهه فندمت على إرسال عامر وانفرادها . ولكنها لما تذكر ما ارتكبه ذلك الأبرص من الوشاية بعبد الرحمن ، هان عليها كل صعب وعولت على أن تبذل غاية الجهد لتشفى غليلها منه ،

فقالت : «وإذا كنت ، فما الذى يهمك من أمرنا ؟» .

قال : «ما بالك تخاطبيننى بجفاء وإنما جئت لاستعطافك ، فلا تجزعى» .

فأدركت ما وراء ذلك اللطف ، وسكتت وقد صعد الدم إلى رأسها ، وقالت : «عهدتك جئت لمخاطبة والدى .. وهو غائب ، فإذا جاء خاطبه» .

قال : «وماذا يفيدنى خطابه إذا لم تكونى أنت راضية ؟» .

قالت : «أراك تلمح بما لا يليق بك بين يدى فتاة لا تعرفك» .

قال فى استخفاف : «كيف تقولين إنك لا تعرفيننى وأنا أعتقد غير ذلك ؟ .. ألا زلت مأخوذة بذلك الولد الجاهل ؟» .

فلم تعد تستطيع صبرا على تلك الوقاحة .. فرأت نفسها ضعيفة، فتساقطت دموعها بالرغم منها ، فحولت وجهها لئلا يلحظ شمر ذلك فيزداد طمعه بها .

أما هو ، فلما رآها تبكى .. عمد إلى اللين ، فتقدم نحوها ، وقال بصوت ضعيف : «لا تبكى يا سلمى ولا تخافى .. اننى مع علمى بكل أسرارك وأسرار عامر وعبدالرحمن فأنا لا أضمر لك شرا ، بل أنا نصيرك وعونك حتى تخرجى من هذه الديار آمنة ، على شرط أن تجيبى سؤال قلبى وترحمى محبا قطع البرارى سعيا إليك .. فارحمى قلب هذا العاشق ، وانزعى عن نفسك مجاراة الغلمان الذين يجلبون الموت إلى أنفسهم بجهلهم وغباوتهم ، كما فعل ابن عمك عبدالرحمن ، حتى وقع أسيرا وسيق إلى السجن .. ولو أردت أن أسوقك وأسوق عامرا إلى ذلك الأسر لفعلت .. ولكن قلبى لا يطاوعنى لأنى أحبك ، وإذا أطعتنى ورضيت بما أطلبه منك عشت معى سعيدة آمنة لأن ما تسعون إليه إنما هو أحلام ، ونحن الآن أهل الصولة والبطش ، وخليفتنا صاحب السلطان والأعوان .. فما قولك ؟» .

فلم تعد سلمى تصبر عن الجواب ، فحولت وجهها إليه وقالت :

«انك تطمع فى شئ لن يتأتى لك أبدا فانصرف من هنا بسلام».

فضحك وقال : «إلى أين أنصرف؟ .. هل أنصرف إلى أمير المؤمنين فأطلعه على حالك فيصيبك ما أصاب ابن عمك ؟! إن عبدالرحمن لم يبق له أمل فى الحياة» ..

فابتدرته سلمى قائلة : «خسئت يا نذل الرجال .. أن يدك ويد يزيد أقصر من أن تنالا شعرة من عبد الرحمن ..» .

فضحك شمر ضحكة طويلة ، وقال : « عبدالرحمن أسير عندنا.. وقد قبضنا عليه وهو يحاول قتل أمير المؤمنين .. فمن أين تأتيه الحياة بعد ؟ .. اقلعى عن عنادك وأطيعى ناصحا يعرض عليك السعادة ، فإذا رفضتها أذاقك الموت».

قالت : «لا تحسبنى أجهل ما تقول ، فقد علمت أن عبد الرحمن أسير .. وأنك أنت وشيت به ، وإنك قادر على أن تشى بى أيضا وتميتنا معا ، لقد فهمت كل ذلك .. فيا حبذا الموت مع عبد الرحمن ، ولا الحياة معك يا خائن».

فوقع ذلك التقريع موقع السهام فى قلبه ، ولكنه كان شديد الولع بسلمى منذ كانت فى العراق .. وهو إنما لحق بهم إلى الشام وأوقع بعبد الرحمن طمعا فى الفوز بها ، وهان عليه ما سمعه من التوبيخ ، وعزم على استرضائها بأية وسيلة كانت .

قالت : «امض وافعل ما تشاء .. أخرج من هنا ، وقل ما تقول» .

فخرج شمر والغضب ظاهر على وجهه ، وهو يلعن سلمى ويتوعدها ، ولكن قلبه لم يطاوعه . فصبر نفسه ريثما يرى عامرا ويسترضيه عسى أن يقنعها .

العزم على الرحيل

مضى أكثر ذلك النهار وهى بين البكاء والتأمل .. حتى إذا مالت الشمس إلى المغيب ، رأت الباب قد فتح ودخل عامر وعلى وجهه مظاهر الدهشة ، فازداد اضطرابها

وقالت : «ماذا سمعت ؟ ..»

قال : «ما سمعت إلا خيرا .. وأنت ما بالك فى هذه الحال ، هل جاءك أحد بخبر؟ ..»

قالت : هل علمت شيئا من خبره ، وما سبب اضطرابك ؟ .. قل لى حالا» .

قال : «أما عبدالرحمن ، فهو حى فى سجنه ولا خوف عليه الآن .. وأما سبب اضطرابى فإنى رأيت جوادا بباب الدير، وخفت أن يكون أحد من رجال يزيد يريد بنا سوءا» ..

فقالت : «هل توافقنى على الخروج من هذا الدير إلى مكان آخر ؟» .

قال :«نعم .. ولكننى أخاف إذا خرجنا الساعة أن يكون صاحب ذلك الفرس يتجسس علينا .. فلنصبر هنيهة» .

فتذكرت سلمى حديث شمر فقالت : «وربما كان ذا الفرس لذاك الرجل الأبرص» .

قال : «وما شأنه ، هل جاء إلى هذا الدير اليوم ..؟»

قالت : «نعم انه جاء بعد خروجك فى هذا الصباح ، وجعل يسترضينى .. ولما لم يسمع منى غير الإعراض خرج مغضبا وهددنى بالوشاية إلى خليفته » .

فصفق عامر يدا بيد وقال : «تبا لك يا شمر يا غادر .. أظنه لا يصبر عن الوشاية بنا إلى الغد .. ألم يكن من الحكمة يا سلمى أن تماطليه وتدافعيه ولو بالباطل ريثما نخرج من هذا المكان ؟ وأنت تعلمين أنه يعلم حقيقتنا..» .

فقالت : «لا تلمنى، فانى لم أعد أريد الحياة بعد ما أصابنا ..»

وقال : «إنى لا ألومك يا سلمى .. على أنى لا أخفى عنك أمرا يشبه هذا وقع لى بالأمس مع ابن زياد ولم أطلعك عليه بعد» .

قالت : «وما ذاك ؟» .

فقص عليها خطبة ابن زياد لها ، إلى أن قال : « ... والآن لم يبق لنا إلا الاستعداد ، فقد بعت الجمال والأحمال ولم يبق لنا ما نحمله غير هذه الثياب» .

قال ذلك وأخذ فى جمع الثياب وحزمها . ولم يكد يفعل ذلك حتى سمع رئيس الدير يناديه باسمه .. فتحول إلى الباب ففتحه ، وتطلع فرأى الرئيس واقفا وأمارات البشر على محياه . فلما وقعت عينه على عامر أومأ إليه بأصبعه أن يأتى إليه، يكلمه .

القول الفصل

فاستبشر عامر بوجه الرئيس .. وسار فى أثره إلى غرفة الرئيس ، فإذا هناك عبيدالله بن زياد .. فشعر عامر بالانقباض ، وأيقن أنه إنما جاء خاطبا ، ولكنه تجلد وتظاهر بالبشاشة والارتياح ، فوقف له ابن زياد ورحب به وأجلسه إلى جانبه ، وجلس الرئيس على جانب البساط بقرب الباب .

فلما استقر بهم الجلوس ، قال عامر : « كيف أصبح مولانا أمير المؤمنين اليوم ؟» .

قال : «أصبح فى خير .. وقد كلفنى أن أحمل إليكم بشرى أظنها تسركم ، وإن كانت فى الحقيقة لا تسرنى ..» .

فسكت عامر .. ثم قال : «إننا جند أمير المؤمنين ، نأتمر بأمره»

قال : «أنت تعلم ما فى نفسى من أمر ابنتك وما خاطبتك به بالأمس .. وقد كان فى نيتى أن أعود إليك مرة أخرى ، فسبقنى أمير المؤمنين لأنه شاهد ابنتك – مصادفة – ووقعت من نفسه موقعا حسنا ، فأحب أن يسعدك بالمصاهرة .. على أن تكون ابنتك من بعض نسائه» .

فوقع ذلك الكلام فى أذن عامر وقوع السهم فى قلبه ، ولم يستطع غير التظاهر بالقبول وإسداء الشكر ريثما يدبر حيلة للفرار ، فقال وهو يحاول الابتسام : «إنى أعد نفسى أسعد

الناس بهذه المنة .. لأن التقرب من أمير المؤمنين شرف وسعادة . ولكن أرغب إلى مولاى أن يمهلنا يوما أو يومين ريثما نتأهب لحمل الفتاة إلى دار الخليفة ، لأنها ستتلقى الخبر بالدهشة لبعد هذه النعمة عن خاطرها » ..

فقال ابن زياد : «لا أظن أن الخليفة إلا راضيا بما ترتاح إليه عروسه .

فسكت عامر .. فحمل ابن زياد سكوته على الرضا ، ثم نهض، فنهض الرئيس وعامر.. فودعهما وخرج .

انقلاب غريب

أما عامر ، فأسرع إلى سلمى وقال لها : «هلمى بنا إلى الفرار .. فانى لا أرى فرجا إلا به» .

قالت : «ولماذا ؟ .. وما الذى حدث ؟» .

فقص عليها حديث ابن زياد .. وكان يتكلم وهو يتوقع أن يرى الذعر قد غمرها ، فإذا هى قد أبرقت أسرتها وأشرق وجهها وزال غضبها ولم تجب .

فقال : «ما رأيك يا سلمى .. ألا ترين أن نسرع فى الفرار ؟»

قالت والجد باد على وجهها : «إنى باقية هنا حتى يحملونى إلى دار الخليفة .» .

قال : «أتعنين أن تقبلى يزيدا زوجا لك ؟»

قالت : «لا تقل يزيد .. بل قل أمير المؤمنين ..»

فانذهل عامر وظن نفسه فى حلم ، وقال فى نفسه : «لقد صدق من قال إن النساء ضعيفات العقول .. إن هذه الفتاة نسيت ابن عمها بعد أن كانت تتفانى فى حبه ، ورضيت برجل كان السبب فى القبض عليه وربما يقتله .. ثم قال لها : «يا سلمى .. هل أنت بنت حجر بن عدى ؟»

قالت : «لا أدرى» .

قال : «ألم نكن بالأمس نبكى والدك ؟ ألم نتعاهد على الأخذ بثأره ؟ .. أنسيت عبد الرحمن ابن عمك وخطيبك ؟ .. أفى حلم أنا أم فى يقظة ؟ ..»

فقالت بصوت هادئ : «لا .. بل أنت فى يقظة ..»

حيـــرة !!

فلما سمع هذا الإصرار ، تصاعد الدم إلى رأسه وتصـور فشـله .. فتحول وخرج من الغـرفة وهو لا يدرى ماذا يفـعل ، ولا إلى أين يذهب . وسرعان ما عاد حتى أتى باب الغـرفة وهو لا يلتمسه ، فأراد التحول عنه فوقعت عيناه على سلمى ، فإذا هى تمسك بشئ تريد أن تدسه فى جيبهـا .. فلمـا رأت عامرا بادرت إلى الباب ، فأغلقته فى وجهه ثم أوصدته .

فلمـا رأى تسترها منه إلى هذا الحد ، داخله ريب من أمـرها .. ولبث واقفا بالباب وهـو لا يفهم سـر هـذه الظـواهر الغريبة .. ولم تطاوعه نفسه على طرق الباب .. فانقلب راجعا حتى خرج من باب الدير ، وسـار فى البسـتـان حـتى تجاوزه وهـو غـارق فى بحـار الهواجس لا يدرى إلى أن تدفعـــه قدماه ..

وما شعر إلا وهو بالقرب من الجميزة ، ولما وقع بصره على قبر حجر ، اختلج قلبه إذ تذكر ليلتهم عند ذلك القبر . وفيما وهو يفكر خطر بباله الشيخ الناسك ، فقال فى نفسه : «يا ليتنى ألقاه وأستطلعه سر هذا الأمـر» ، ولم يكد يفكر فى ذلك حتى رأى شيبوبا خـارجـا من وراء الجميزة ، وهو يثب على جذعها كأنه يحاول الصعود .. ثم رأى شيخا متكئـا على بعض أغصانهـا .. فتـفرس فيه فإذا هو شيخنا الناسك . فـارتاح لتلك المصادفة التى جعلته يلتقى به فى ذلك المكان ، فإذا الناسك ينحدر نازلا حتى وصل إلى الأرض ، والكلب يحوم حـوله ويثب كأنه يرحب به ..

وقال الناسك : «لقد قضى الأمر يا عامر .. ولكن لا تجزع ، فإنهم

لن يقتلوه على عجل» ، فارتعدت فرائص عامر ، وهم بيد الشيخ ليقبلها فأمسك الشيخ يده بيده ، وقال : «تجلد يا عامر ، وكن رجلا ...»

فـزال اضطـراب عـامـر ، وارتاحـت نفسـه إلى مكاشـفـتـه بحـال سلمى ، فـقال : «أنى لا أجزع على عبدالرحمن .. ولكنى أخـاف على سلمى» .

قال : «وما الذى يخيفك ؟»

قال : «لقد طلبها يزيد لتكون زوجا له فقبلت بالرغم منى ...»

فأرخى الشيخ الناسك يده ، فأفلتت يد عامر منها .. فإذا بالشيخ قد جلس وأسند ظهره إلى الجميزة وهو يحك رأسه بأطراف أظافره كأنه يفكر فى أمر . ثم قال : «وأى بأس عليها من ذلك القبول ؟»

قال عامر : «ألا ترى بأسا عليـهـا يا سـيدى ؟ .. فكيف تقـبل هى هذا الأمر ؟!»

فضحك الشيخ ، وقال : «لابد لها من خير ترجوه بذلك ، فلا تزجرها» .

فتعجب عامر ، وقال : «ولكن كيف يطاوعها قلبها على ذلك ؟ .. كيف تخون خطيبها وابن عمها وترضى بذلك الأموى بدلا منه ؟!»

فـقال الشيخ : «تأدب يا عامر ، ان ابنة عدى لا تخون .. وهى لم تأت إلى الشام وتتكبد مشاق الأسفار لتخون قلبها وتغدر بابن عمها» .

فانذهل عامر ، ولكنه شعر بصواب الرأى فى مسايرتها ليستطلع ما يكنه ضميرها ، وتظاهر برغبته فى الانصراف إليها ، فابتدره قائلا : «اذهب إليها على عجل» .

فنهض عامر وسار حتى وصل إلى غرفة سلمى ، فرأى الباب لا يزال موصدا ، فطرقه وانتظر .. فلم يجبه أحد ، فعاود وطرقه ثانيا .. ففتحته سلمى ، فدخل عامر وأقفل الباب وراءه ، ونظر فى وجه سلمى فرأى الكآبة بادية عليه وكأنها كانت تبكى ، فقال لها : «لعلك لا تزالين على عهدك يا بنية ؟»

فأشارت برأسها وقالت : «نعم ...»

فقال : «لقد فكرت فى أمرك بعد خروجى من عندك ، فرأيت أنك على صواب لأننا لا نستطيع الفرار الآن ، وعلينا العيون من كل ناحية ، هذا إلى أن تقربنا من الخليفة ربما عاد علينا بالخير» .

فرفعت بصرها إليه وتفرست فى وجهه هنيهة ، ثم قالت : «يظهر أنك تريد الذهاب معى ..»

قال : «وكيف لا ؟»

قالت : «لا .. لا تذهب معى ..»

قال : «كيف لا أذهب معك ؟ .. وإلى أين أذهب ؟ ..»

قالت : «لا أدرى إلى أين تذهب ، ولكنى لا أريد أن يذهب معى أحد ..»

قال : «.. إذا كنت تعدين زواجك بالخليفة سعادة ، فلماذا تريدين حرمانى منها ؟ وإذا صرت أنت زوج أمير المؤمنين ، فإنى أتمنى أن تساعدينى على اطلاق سراح عبد الرحمن ، لأنك – ولا ريب – ستتسلطين على قلب الخليفة . فإذا طلبت إطلاق سراح ابن عمك فلا أظنه إلا فاعلا ما تريدين» . قال ذلك وهو يرقب ما يبدو منها .

أما سلمى فلما سمعت كلامه ، وهى تشك فى صدق مراده، ثم قالت : «أصحيح ما تقوله يا عماه ؟ هل رأيت أن تطاوعنى فى الذهاب إلى الخليفة ؟ .. أقسم بعبد الرحمن أنك تسمح لى بذلك!»

قال : «نعم يا سلمى .. ، أقسم لك به» ..

قالت : «فأطعنى اذن .. ودعنى أذهب وحدى ..»

قال : «ولماذا؟ .. إنى لأعجب من أمرك» .. فوقفت بغتة وقوف الأسد، وقالت : «أتظننى ذاهبة للزواج بيزيد؟ ..»

قال : «ولماذا إذن؟ ..»

فمدت يدها الى جيبها واستلت خنجرا كانت قد خبأته هناك، وقالت : «إنى ذاهبة لأقتله بهذا الخنجر»

فأجفل عامر، وغلبت عليه الدهشة لما ظهر من شجاعة سلمى، وقال: «كيف تفعلين ذلك يا سلمى ؟ ... كيف تطلبين منى أن أرضى معك بذلك، ونحن لا نزال نادمين على التهور الذى ساق عبد الرحمن الى خطر القتل، فهل تسوقين نفسك الى تهور أبلغ ؟»

استعداد للانتقام

فقالت وقد هاجت عواطفها : «هل تعلم أن عبد الرحمن هناك تحت خطر القتل وتمنعنى من الذهاب اليه ؟ .. وتلومنى على أن سعيت لألحق به . . أيدعوننا يزيد لأن نسير إليه ونملك رقبته بالقرب من سجينه ولا نرضى ؟ .. نعم، لقد عددت عمل عبد الرحمن تهوراً لأنه أقبل على الاقتراب من يزيد وحوله الخدم والأعوان . ولكن يزيد يدعونى اليوم لأكون معه فى فراشه، وهى فرصة ينبغى ألا أضيعها. أم تريد يا عمى أن أخاف على حياتى، وعبد الرحمن تحت خطر القتل .. دعنى أذهب اليه، فإما أن أخلص حبيبى وأقتل يزيد وأنقذ الاسلام من شره وأنتقم لوالدى، وإما أن أموت فداء لحبيبى وينجو هو، أو نموت جميعاً .. فابتدرها قائلا: «إذا لم يكن فى ذهابى فائدة .. فهل الفائدة فى بقائى هنا ؟ ..»

قالت : «نعم يا سيدى أعرنى سمعك .. إذا ذهبت معى ، كنا جميعاً تحت خطر الأسر والقتل. فأذا لم أفز بقتل يزيد وحكم على بالموت يحكم عليك أنت أيضاً بمثله .. أما إذا كنت مطلق السراح فتسعى في إنقاذ عبد الرحمن» .

فلما أحس منها عامر ذلك، تضاعف إعجابه بشهامتها .. ولكنه ازداد حيرة، قال لها : «وما قولك إذا حكم القضاء بقتلك وقتل عبد الرحمن .. هل من فائدة فى بقائى؟ »

قالت : «أوصيك إذا حكم القضاء بذلك، فاذهب الى الإمام الحسين سيد شباب المسلمين، وجاهد فى سبيل نصرة الحق» .. فلم ير عامر بدا من السكوت بالرغم منه، وقال: «لقد غلبتنى يا سلمى

بشهامتك .. فها أنا فاعل ما تأمرين» .

فشل «شمر»

وفى الصباح لقى عامر الرئيس الذى قال له : «ظننتك رأيت رسول الخليفة .. ألم تره ؟» .

فاختلج قلب عامر عند سماع اسم الخليفة، وقال : «لا .. لم أره أين هو ؟»

قال : «جاء مساء ، وأنتم نيام .. فبات عندنا على أن يقابلك فى هذا الصباح» .

قال : «وأين هو يا سيدى ؟»

فنادى الرئيس أحد الرهبان، وأمره أن يدعو الرسول ولم تمض برهة حتى رأى الرجل صاعداً، وحين وقع نظره عليه عرف من برصه أنه شمر بن ذى الجوشن، فاستعاذ بالله من شره وعلم أنه قادم لمخاطبته بشأن سلمى لنفسه

أما شمر، فاستقبل عامرا باسماً .. وقال له : «هل تأذن لى بخلوة قصيرة ؟» ..

قال: «تفضل» ومشى به الى جانب من جوانب السطح منفردا، وقبل أن يصلا إلى المكان قال شمر : «أظنك أدركت سبب مجيئى يا عامر» .

فرأى عامر أن يفاجئة بخبر الخليفة وخطبته سلمى لكى لا يترك له مجالا ، فقال : «لعلك قادم من قبل الخليفة لحمل خطيبته اليه ؟ ..»

فلما سمع شمر ذلك بغت، واستوقف عامرا بيده، وقال له : «وأى خطيبة ؟»

قال : «سلمى»

قال : «هل خطبها الخليفة ؟» .

قال : «هكذا يقولون .. ونحن ننتظر وفداً من عنده اليوم» فبهت الرجل وظل صامتا برهة، ثم قال : «قد خرجت سلمى من يدى إذن ؟!»

فخشى عامر إذا جافاه أن يشى بسلمى أو ينوى شرا، وظن أن مجاملته تدفع ذلك الشر عنها، فقال : «لا أدرى إذا كانت خرجت أو لم تخرج، ولكنى اعلم أن مولانا أمير المؤمنين بعث يخطبها لنفسه .. ومع ذلك فالمستقبل فى علم الله» .

قال: «وأى مستقبل ترجو ؟، فلتهنأ بالخليفة هى وخطيبها الأول، إذا كان لا يزال على قيد الحياة»

فارتعدت فرائص عامر، وقال : «هل تعرف شيئاً عن عبد الرحمن ؟ .. وأين هو ؟»

قال : «لا أعلم ما جرى له حتى الآن، ولكننى أخبرك أن عناد سلمى سيجر الوبال عليها وعليه، أتظن أن الخليفة أذا عرف علاقتها به يستبقيها أو يستبقيه ؟ فلتهنأ ابنة حجر بما سينالها نتيجة لرفض شمر» قال ذلك ثم مضى مسرعاً، وخرج، فركب جواده وسار .. وعامر لا يزال واقفاً، وقد جمد الدم فى عروقه، وهو لا يدرى ماذا يفعل ..

الوداع الأخير

ثم مضى عامر يريد النزول، فقابله الرئيس وقال له: «أبشرك بوفد قادم لحمل العروس الى عريسها، فأخبرها لتتأهب» فهرول عامر حتى دخل الغرفة .

وقال لها: «ألا تزالين يا سلمى على عزمك؟» قالت : «عزمت وتوكلت على الله»

قال لها : «ألا تراجعين نفسك ؟ ألا تذكرين أن فى دار الخليفة أناسا يعرفون من أنت وما علاقتك بعبد الرحمن ؟، أتظنين أن الخليفة يبقى عليك اذا انكشفت له حقيقة أمرك ؟» ..

قالت : «أتظننى أجهل أن شمر اللعين يترقب فرصة للإيقاع بى، وأنه سيطلع الخليفة على سرى حين يجدنى فى داره ، ولكن...»

التفت إليها وقال: «ها أنت ذاهبة الى خطر هو أشد مما خفناه على

عبد الرحمن يوم خروجه لقتل يزيد، فكيف أرضى بذهابك .. لا ... لا .. لا أدعك تذهبين وحدك!»

قالت: «لقد قضى الأمر يا عماه .. تعال ودعنى على عجل»

وأمسكت بيده لتقبلها، فضمها الى صدرة والدموع تتناثر من عينيه بالرغم منه، وقال: «سلمى على عبد الرحمن، ولا أكلفك أن تبلغينى أخباركما .. فأنى سأستطلع كل شئ بنفسى، ولكننى أوصيك أن ترفقى بنفسك ما استطعت»

قالت: «لا تخف يا عماه .. وأنت تعلم أنى بنت حجر بن عدى، وهذا يكفى» قالت ذلك وقد استردت قواها وكتمت عواطفها وبينما هما فى ذلك، اذ سمعا ضجيجاً فى باحة الدير، فقال عامر: «إن الوفد قد وصل»، قال ذلك وخرج بخفة واختلط بالجمع فلم ينتبه له أحد حتى خرج من الدير وقلبه يقطر دما.

أما الوفد فكان قد وصل الى الدير، وفى مقدمته عبيد الله بن زياد، وقد أعدوا هودجا بالأطلس. وتقدم ابن زياد الى الرئيس وطلب مقابلة سلمى. فأخذه الرئيس اليها فقابلته والنقاب على رأسها وأخبرته بغياب والدها، فقال: «هل أنت مستعده للذهاب الى الخليفة ؟»، فقالت: «نعم».

الموكب

فخرجوا بها حتى ركبت الهودج فى موكب حافل حتى وصلوا إلى باب كبير جانباه من الرخام المنقوش، وعلى عتبته العليا رسم النسر الرومانى، وكانت تعرف أن النسر شارة الروم، فاستغربت اقامة الخليفة فى بيت من بيوت الروم .. ؟!

ولم يكد الهودج يستقر مكانه حتى سألت ابن زياد عن المكان الذى هم فيه، فقال لها من وراء الستار: «إننا بباب الخليفة يا سيدتى» فنزلت ودخلت من الباب .. فرأت على جوانبه الحرس من جند الخليفة وفى أيديهم الحراب. سارت فى بعض طرق الحديقة وابن زياد

يتقدمها، وهو معجب بما ملكوا مما شيد الرومان من آثار مجدهم.

وبعد قليل انتهت إلى باب آخر أصغر من ذلك، يصعدون إليه بدرجات قليلة من الرخام المصقول، فدخل عبيد الله أمامها تحت القبة، فتبعته فأشرفت على ساحة واسعة مكشوفة مسورة بأعمدة زخرفت بالنقوش، وفى صدر الساحة باب مرتفع وأمامه الحجاب، فعلمت أنه مدخل مجلس الخليفة. وتحققت من ذلك مما رأته إلى يمين الباب من جماهير الناس، وفيهم الشعراء والرواة وأصحاب الحاجات ممن يقفون بباب الخليفة لقضاء حوائجهم. وكانت الساحة مكشوفة من الوسط فقط، فبهرتها تلك المناظر.

ولما أطل ابن زياد على تلك الساحة، ثم اتجه نحو اليسار، تتبعه سلمى، حتى وصلا إلى باب بديع النقش عليه استار من الحرير المزركش بالذهب، رسمت عليه رسوم فى جملتها كتابة باليونانية .. فازدادت دهشتها لاستبقاء المسلمين على تلك الآثار إلى ذلك الحين مع ما وصل إليه سلطانهم من السطوة. ولو علمت معنى تلك الكتابة لكان استغرابها أعظم، لأنها كلمات تتألف منها عبارة الاستهلال فى الصلاة عند النصارى، وترجمتها: «باسم الآب والابن والروح القدس» والسبب فى ذلك أن الأستار وأمثالها من مطرزات الملك كانت - قبل الإسلام - تصنع فى مصر وأهلها من النصارى وفيهم القبط والروم، فكانوا يطرزونها بالرومية، وأكثر ما يرسمون عليها تلك الآية. وكان الروم فى الشام وغيرها يبتاعون تلك الأستار من مصر، فيعلقونها على الأبواب والنوافذ للزينة والتبرك ..

فلما ظهر الإسلام وفتح المسلمون مصر والشام، واستعاروا تلك الزينة من الروم، ولم يلتفتوا إلى فحوى ما عليها من الكتابة، وفى جملتهم الأمويون فى دمشق. ومازال ذلك دأبهم إلى أيام عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ هـ إلى ٨٦ هـ) وهو أول من تنبه إليه، فأمر بالكتابة إلى عبد العزيز بن مروان أخيه وعامله على مصر بابطال هذا

الطراز ، وأن يأمر بتطريز صورة التوحيد «أشهد الله أنه لا اله إلا هو» ففعلوا .

سلمى فى دار النساء

ودخلت سلمى من ذلك الباب ، فانتهت إلى دهليز مفروش بالبسط وعلى جدرانه نقوش كثيرة حتى أقبلت على دار النساء. وهى غرف تطل على ساحة فيها بركة من الرخام. فقال لها ابن زياد : «إنك فى دار النساء يا سيدتى» قال ذلك وارتد ، فاستقبلتها امرأة عجوز ومعها رجل عليه لباس الحجاب ، فاستغربت سلمى ذلك . فقالت لها العجوز أنه «فتح» – وهو خصى مولانا أمير المؤمنين وحاجبه ومشت بها العجوز حتى دخلت غرفة زينوها وفرشوها بالأبسطة والأطلس ، وفيها سرير مذهب ، فأحست أنها فى قفص من حديد . وتظاهرت بالتعب ، فرحبت العجوز بها وطلبت إليها أن تنزع ملابسها وترتاح ، ثم قالت : «لقد أعددنا لك الثياب الفاخرة .. ولا ريب عندى أنك إذا لبستها يزداد جمالك وتعلو منزلتك عند مولانا ..» فشكرتها ، ثم جلست تفكر فى أمر حبيبها ، وهى لا تدرى ما أصابه هل هو مسجون أم قتل ، أم أطلق .. ورأت فى تلك الحجرة نافذة بجانبها مقعد مبنى من الرخام كالدكة تعلوه وسادة كبيرة .. فجلست على الوسادة وأطلت من النافذة ، وسمعت جلبة بما يشبه التكبير ، فعلمت أنها بقرب الجامع .. على أنها أرادت مخاطبة العجوز ، لعلها تستشف من الحديث خبرا عن خطيبها ، فقالت لها : «وما هذا البناء يا خالة ؟..» .

قالت : «هذا هو الجامع يا سيدتى» .

قالت : «وهل بناه أمير المؤمنين أم أبوه ؟..» .

قالت : «كلا يا حبيبتى ، فإنه من بناء الروم مثل هذا القصر. ولكنه كان كنيسة على اسم سيدنا يحيى يصلى فيها النصارى ، وكان هذا القصر الذى نقيم فيه قصرا لأرباب الحكومة من الروم . فلما فتح المسلمون الشام اتخذوا هذا القصر دار للأمارة ، واقتسموا الكنيسة

بينهم وبين النصارى فجعلوا نصفها جامعا والنصف الآخر كنيسة» .

قالت : «وهل بين هذه الدار وبين الجامع اتصال ؟» .

قالت : «نعم .. إن بينهما دهليزا يمر فيه الخليفة كل صباح للصلاة ويعود منه ، وقد ذهب فى هذا الصباح ولم يعد بعد» .

وبينما هى تخاطبها سمعت الضوضاء تتزايد فى الجامع ، فقال سلمى : «وما سبب هذه الضوضاء ؟» .

قالت : «ان المسلمين يلعنون أبا تراب .. »

قالت : «ومن هو أبو تراب ؟» .

قالت : «هو على بن أبى طالب.. وكلما صلوا ختموا الصلاة بلعنه» .

فتذكرت سلمى مصيبتها ، وعلمت أن والدها إنما مات فى هذا السبيل ..

ولم تكن سلمى تعبأ بهذه المعلومات ، لو لم تأمل أن يمتد الحديث إلى خبر عبد الرحمن ، فقالت : «فى الحقيقة أن هذا القصر بديع ، لا أظن أن المسلمين بنوا قصرا مثله إلى هذا اليوم .. ولكننى رأيت فيه الحراس وقوفا فى الأبواب ومعهم السيوف والحراب مع علمى أن الخلفاء فى الحجاز والعراق لم يكونوا يتخذون الحراس» .

قالت : «صدقت يا بنية ، وأول من اتخذ الحرس هو معاوية والد أمير المؤمنين بعد حادثة البراك بن عبد الله التميمى الذى كاد يقتله ، لو لم يقع السيف فى قفاه وينجو بإذن الله .. فاتخذ معاوية الحراس من ذلك الحين ، وأمر بإقامة حراس الليل وقيام رجال الشرطة على رأسه إذا سجد . وهو أول من فعل ذلك من الخلفاء وفعل يزيد أمير المؤمنين مثل ما فعل أبوه لقتل منذ يومين .. إذ كمن له رجل فى مكان الصيد .. ولو لم ينبهه بعض خاصته إلى ذلك ، لذهبت حياته ، ولكن الله نجاه» .

فلما سمعت سلمى ذلك اختلج قلبها وارتعدت فرائصها ، ولم تصبر عن معرفة الحقيقة ، فقالت : «وماذا فعلوا بذلك الرجل ؟» .

قالت : «قادوه مغلولا وحبسوه ، وسمعت فى هذا الصباح أنهم سيوقفونه بين يدى الخليفة ويسألونه عن أصله .. وسبب مجيئه ، وبعد ذلك يقتلونه .. » .

فسكتت سلمى وزاد اضطرابها ، وتظاهرت بصداع دهمها .

المقصورة

وفيما هى تفكر إذا بالغوغاء قد قامت فى الدار فبغتت سلمى ، فقالت لها العجوز : «إن الخليفة قادم ، ولابد من مجيئه إليك لأنه ينتظر مجيئك بفارغ الصبر» .

وبعد هنيهة أقبل «فتح» الخصى وهو من الاغوات وقال : «إن الخليفة قادم يا خالة» ، وما لبثت أن سمعت وقع أقدامه قرب حجرتها، فبدا عليها بعض الاضطراب ، فأرسلت النقاب على وجهها . دخل يزيد وعليه رداء أزرق وعلى رأسه عمامة خضراء وبيده جلد سميك يشبه الكرباج فلما أطل على الغرفة استقبلته العجوز فقبلت يده وأمسكت سلمى واستنهضتها لاستقبال الخليفة . فوقفت وتظاهرت بالحياء ، فناداها يزيد قائلا : «أهلا بعروسنا» ومد يده ورفع الغطاء عن وجهها وقلبه يكاد يطفح سرورا ، لأنه لم يشهد من قبل مثل ما فى وجهها من الجمال والهيبة ..

أما هى ، فتجلدت ونظرت إلى يزيد كأنها تزن قواه لترى ما يكون من أمرها معه إذا همت بقتله .. فرأت أن جسمه لا يدل على بطش شديد . وكان طويل القامة ، جعد الشعر ، أحور العينين ، فبالغت فى اظهار التوجع من الصداع . فالتفت يزيد إلى العجوز كأنه يستوضحها الأمر فابتدرته قائلة : «إن عروس مولانا تشكو من صداع شديد ، أظنه سيزول قريبا» .

فقال : «لا بأس عليها ، فأرى أن تنتقلى بها إلى المقصورة فى أعلى هذا القصر ، فتكون على مقربة من مجلسى .. حتى نلتقى فى

المســاء» ، قال ذلك ومضى حتى خرج من دار النساء إلى مجلسه ..

أما سلمى ، فقد سرها ذلك التأجيل ريثما تدبر حيلة تتمم بها الأمر..

وصعدت العجوز بسلمى على سلم من الرخام بجانب تلك الدار حتى وصلت إلى غرفة مفروشة بأحسن الأثاث ، وفيها الطنافس والوسائد والمقاعد ، ولها نافذة تطل على الحديقة .. فتحققت أن يزيدا سيزورها هناك ، وإذا همت بقتله فإنما تقتله فى تلك الغرفة ، فكيف تنجو بنفسها بعد ذلك ؟ .. فأخذت تفكر ، وقالت للعجوز : «لعل هذه الغرفة منفردة هنا ؟» .

قالت : «ليست منفردة ، ولكنها مقصورة خاصة بالخليفة يصعد إليها من باب خاص» .

قالت : «ربما ينام فيها أحيانا ..» .

قالت العجوز : «ربمـا نـام فيها أحيانا ، ولكنه يجلس فيها لغـرض سـرى لا أرى مـانعـا من أن أبوح لك به .. وذلك أن والـــده معاوية كان لفرط دهائه قد اتخذ هـــذه المقصورة مخبأ له ، يطل منه على المجلس من كوة صغيرة فيرى أهل المجلس تحته وهم لا يرونه .. فعـل ذلك حتى لا تخفى عليه خافية» .

مجلس الخليفة

فاستبشرت سلمى بتلك الكوة كى تشاهد منها ما سـيدور بين الخليفة وبين عبد الرحمن إذا أحضر لاستجـوابه وقالت : «وأين الباب السرى الذى يخرج منه مولانا ؟ ..» .

فأمسكتها بيدها وسارت بها عدة خطوات ، ثم دارت من وراء الغرفة .. فإذا هناك باب صغير فتحته ، فرأت من ورائه سلما ضيقا وقالت : «هذا هو الباب السرى ، فاكتمى ذلك ..» .

قالت سلمى : «والى أين يؤدى ؟» .

قالت : «إنه ينتهى إلى دهليز طويل آخره فى الحديقة الخارجية، يفتح من الداخل ولا يفتح من الخارج إلا بمفتاح خاص» .

فتفرست سلمى فى المكان حتى تصورت المدخل والمخرج ، فعادت إلى استطلاع أمر عبد الرحمن .. ولكنها تظاهرت بعدم الاهتمام فى بادىء الأمر ، وعادت إلى المقصورة وجلست إلى النافذة فأطلت على الحديقة والعجوز إلى جانبها . ثم تظاهرت سلمى بالملل وقالت : «دعينا نطل من الكوة ونرى مجلس الخليفة» .

فمشت العجوز أمامها حتى خرجت من الغرفة .. ثم سارت بضع خطوات، فوصلت إلى وسادة صغيرة أزاحتها .. فانكشفت كوة صغيرة تطل على المجلس . فإذا بالمجلس قاعة كبيرة مفروشة بالسجاد الملون ، وعلى دائرة وسائد جلس الأمراء عليها .. أما يزيد، فقد كان جالسا فى صدر القاعة على دكة مرتفعة من خشب موشى بالذهب .. وعلى رأسه اثنان بأيديهما الحراب ، وإلى جانبه ابن زياد على وسادة مزكشة بالذهب . وفى يد يزيد عصا الخلافة وعلى كتفيه رداء خاص بالخلفاء .. فتأملت فى ذلك المجلس ، فلم تجد فيه ما كانت تتوقعه من الهيبة والوقار .. فقد كان الحاضرون يخاطب بعضهم بعضا بأصوات مرتفعة ، وسمعت بعضهم يقهقه ويزيد لا يعبأ بقهقهتهم ، وكان موليا وجهه إلى ابن زياد يخاطبه سرا وهو يضحك ..

ثم صاح بغتة قائلا : «يا غلام» فدخل رجل كان بالباب ، ووقف متأدبا . فقال يزيد : «قل لمن ببابنا من الشعراء أننا لن نقابل أحدا منهم اليوم ، وإنما نريد أن نرى ذلك الغلام الذى هم بقتلنا .. إلىَّ به .. » .

فخرج الغلام ثم عاد ووراءه عبد الرحمن مكبلا بالحديد فلما رأته سلمى ارتعدت مفاصلها لأنها خافت أن يفتك به يزيد .

الاستجواب

فلما وقف عبد الرحمن فى وسط القاعة ، التفت يمنة ويسرة

وتفرس فى الناس وهو لا يبالى بما يتهدده من الخطر .. فسرت سلمى برباطة جأشه ، فناداه يزيد قائلا : «ممن أنت يا رجل ؟..» .

فقال عبد الرحمن : «إنى من هذه البلدة» ..

فابتدره بن زياد قائلا : «أيسألك أمير المؤمنين عن نسبك فتجيبه بهذا الجواب ؟ ..» .

قال : «وهذا هو جوابى ..» .

قال عبيد الله : «يظهر من وقاحتك أنك لا تدرى من هو الذى يخاطبك ؟» .

قال : «أدرى ذلك .. أن الذى يخاطبنى يزيد بن معاوية ..» .

قال : «قل أمير المؤمنين ..» .

فقطع يزيد كلام ابن زياد ، وقال : «دعه يا عبيد الله» ثم التفت إلى عبدالرحمن ، وقال : «وما الذى حملك على هذه الخيانة ؟» .

قال : «ليست هذه خيانة ، وإنما هى جسارة حملنى عليها اعتقادى بأننى أخدم بها الإسلام والمسلمين ..» .

فشعر يزيد أن الرجل ينوى التصريح بأمور مهينة ، فرأى أنه من الدهاء مداورته على عادة والده معاوية القائل : «لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت» فقيل له : «وكيف ذلك ؟» قال : «إذا هم شدوا أرخيت ، وإذا أرخوا شددت» .

وكثيرا ما كان معاوية يتحمل من أتباع على كلاما جارحا ويصرفهم راضين ، وما ذلك إلا من كثرة دهائه . ولم يكن يزيد مثل والده ، ولكنه أراد أن يتشبه به .. فقال لعبد الرحمن : «ولكن ماذا يمنعك من أن تقول من أنت ، وما الذى جاء بك إلى هذه الديار؟..» .

قال عبد الرحمن : «إنك تسألنى سؤالا لا دخل له فى عقابك أو ثوابك ، وإنما يكفيك أن تسمع كلامى وتأخذنى بإقرارى ، وأنا أقول

إننى جئت لأقتلك عمدا» .

فضحك يزيد والتفت إلى ابن زياد ، وخاطبه خطابا لم يفهمه أحد .. ثم التفت إلى عبد الرحمن ، وقال له : «يظهر أنك مغرور .. ونحن لا نرضى إلا أن نلتمس لك عذرا لئلا تكون مدفوعا من أحد بطريق الاغراء ، ويكفى للصفح عنك أن تلعن عليا .. » .

فلما سمع عبد الرحمن ذلك نسى أنه مقيد بين يدى الخليفة ، فالتفت إليه وقال : «أنك تطلب أمرا مستحيلا ، وما على ممن يجوز عليه ذلك» .

فقال ابن زياد : «اقبل النصيحة وأطع أمير المؤمنين لئلا يصيبك ما أصاب أمثالك ممن ساقهم عنادهم إلى القتل مثل حجر بن عدى و ..»

فنظر عبد الرحمن إلى ابن زياد ، والشرر يتطاير من عينيه ، وقال : « كأنى بك يا ابن سمية تفخر بما فعله أبوك بحجر ، وقد سعى فى قتله زورا .. قتله لأنه لم يلعن ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإذا رأيت أن ترتكب أنت أيضا مثل ذلك فاقتلنى ولا تخوفنى .. فإن عليا أولى بالمدح من سواه ..»

فلما قال عبد الرحمن ذلك ، ضج المجلس وقامت الغوغاء .. وما من أحد إلا أعجب بجسارة ذلك الأسير المقيد ..

أما سلمى ، فقد كادت تفقد رشدها من عظم التأثر وتتقلب بين الاعجاب بشهامة ابن عمها وبين الخوف على حياته .

ثم سمعت يزيد يقول له : «قد أمهلناك يوما آخر ، فإذا لم ترجع عن غرورك أذقناك الموت .. خذوه إلى السجن» فقال : «لا تؤجل عملا إلى الغد .. فإنى أنا اليوم مثلى بالأمس وبالغد ، لن أحيد عن الحق ولو قطعتمونى اربا ..» .

التظاهر بالنوم

أشفقت العجوز عليها لما ظهر على وجهها من آثار الاضطراب

لاعتقادها أنه أثر من آثار الصداع ، وتظاهرت بشدة الألم . فقالت لها العجوز : «إذا كنت تشكين من الصداع الشديد ، فإليك الفراش توسدى وارتاحى» .

فأطاعتها .. توسدت الفراش والتحفت الغطاء إلى رأسها ، ولبثت لا تبدى حراكا حتى ظنتها العجوز قد نامت . وهى إنما سكتت لانشغال خاطرها فيما هى فيه من القلق وما تخافه على عبد الرحمن وعلى نفسها من الخطر ..

وفيما هى راقدة سمعت خطوات مفردة على السلم ، فعلمت أن يزيد صاعد ليراها ويسأل عن صحتها ، فاستعاذت بالله ، ولكنها رأت أن تتظاهر بالنوم لأن الليل لم يحن بعد ، وهى إنما تريد قتله ليلا والناس نيام ، لتتمكن من الفرار..

وبعد لحظة وصل يزيد إلى باب المقصورة ، فأسرعت العجوز إليه واستقبلته وهى تشير على فمها وتقول هامسة : «امش الهوينى ولا تتكلم لأن العروس نائمة .. » .

فقال لها : «أعدى لنا ما نحتاج إليه من الشراب والطعام لنقضى الليلة فى هذه المقصورة» .

قالت : «سمعا وطاعة» وسارت فى أثره .

فأدركت سلمى انهما ذهبا ففتحت عينيها ونظرت إلى جوانب الغرفة فلم تجد أحدا ، وكانت فى أثناء رقادها تفكر فى طريقة لقتل يزيد . فلما علمت بعزم يزيد على المبيت فى تلك المقصورة ، وسمعت سؤاله عن دخولها الحمام .. أخرجت الخنجر من جيبها ودسته تحت الفراش بحيث تصل يدها إليه متى شاءت .

«شمر»

فخرجت إلى الكوة المطلة على مجلس الخليفة ، فرأت المجلس مجتمعا ولم تر يزيد هناك .. ثم ما لبث أن دخل ومعه رجل لم يقع

نظرها عليه حتى ارتعش جسمها وارتعدت فرائصها .. لقد كان شمر بن ذى الجوشن ، فاستعاذت بالله من وشايته . ولكنها أصبحت لا تخاف شيئا فى سبيل الانتقام لوالدها وخطيبها ..

ورأت يزيد يرحب بشمر ويدعوه إلى جانبه ، فلم يتجاسر أن يجلس على الوسادة ، ولكنه تربع على البساط بين يدى يزيد وهو متأدب ..

فقال له يزيد : «لماذا لم تحضر مجلسنا وأنت أول من نبهنا إلى الخطر الذى نجانا الله منه بالأمس ؟» .

فقبل شمر الأرض ، وقال : «أرجو أن ينال ذلك الخائن أيضا ما يستحقه» .

قال : «إنه سينال جزاءه بعد أن نرى ما يعترف به ، فلعل له شركاء إذا أطلعنا على سرهم منه أمنا شرهم ..» .

قال شمر : «ألم يسأله أمير المؤمنين عن نسبه ؟ » .

قال : «سألناه فلم يجب ، فأمهلناه إلى الغد ..» .

فوقف شمر والسرور باد على وجهه ، وقال : «إذا أمرنى مولاى أخبرته بنسبه، ولا أظنه بعد ذلك إلا آمرا بقتله فى هذه الساعة..» .

فلما سمعت سلمى كلام شمر ، اهتزت كل جوارحها .. فإذا بيزيد يقول : «ومن هو ؟ .. قل ..» .

قال : «ألا تعرف حجر بن عدى ؟» .

قال : «نعم .. سمعت به» .

قال : «أنه ابن أخيه ، ويزعم هذا الغادر أنه سينتقم لعمه من أمير المؤمنين ..» .

فهب يزيد من مجلسه ، وصاح قائلا : «أصحيح ما تقول يا شمر ؟ ..» .

قال : «إنى لا أقول غير الصدق ، وإذا حضر الآن جادلته» .

فضج المجلس ، وصاح يزيد : «آتونى به» .

فجاءوا بعبد الرحمن وعليه الأغلال والقيود ، فوقف بين يدى يزيد وهو لا يبالى .

فالتفت شمر إليه : «أيسألك أمير المؤمنين عن نسبك فتخفيه عنه ؟» .

فنظر عبد الرحمن إلى شمر وحملق فيه ، وهو لا يعبأ بما يتهدده من الخطر فى ذلك الوقت ، وقال : «لم أخف نسبى خوفا على حياتى، ولا أرى فى نسبى إلا ما يدعو إلى الفخر» .

قال شمر : «قل إذن من أنت ؟ ..» .

فرفع عبد الرحمن صوته ، وقال : «إنى من كندة ، واسمى عبد الرحمن ، وعمى حجر بن عدى ، قتلتموه ظلما وعدوانا..» .

فتعجب يزيد من تلك الجرأة، وقال: «أتقول ذلك ولا تخاف؟» .

قال : «مم أخاف وقد أقررت بعزمى جهارا ، وأزيدكم بيانا أنى إنما تعمدت قتل يزيد انتقاما لعمى المقتول ظلما..» .

وكان ابن زياد جالسا بجانب يزيد يسمع ما يدور بينهما ، فلما سمع قوله أراد مطاولته فقال : «إنك مصاب فى عقلك فأقلع عما أنت فيه ، وإن كان صبر أمير المؤمنين لا يضيق عن وقاحتك. فإذا استغفرته، أظنه يصفح عنك» .

قال : «لا .. يا ابن زياد ، لا تتوسل فى العفو عنى .. فأنا لا التمس البقاء ..» .

قال يزيد والغضب ظاهر فى عينيه : «قد كنا أجلنا قتلك إلى الغد ونحن نحسبك نادما على وقاحتك ، فإذا أنت مستعجل أجلك ... فاعلم أنك مقتول قبل أن تطلع شمس الغد .. خذوه إلى السجن وأرونى رأسه فى الصباح ..» .

اليأس

فأرادوا أن يتحولوا به إلى السجن ، فقال شمر : «فليأذن لى مولاى

أن أقتله بيدى ..» .

قال : «اقتله وأتنى برأسه غدا ، إلا إذا رجع عن رغبته واستغفر ولعن أبا تراب» .

فلما سمع عبد الرحمن ذلك حول وجهه إلى يزيد وقال : «اقتلونى الآن عساى ألقى عليا وحجرا على عجل .. وإذا كان لابد من تأجيل قتلى ، فلا أرضى بالموت قبل أن أؤدى شهادتى على رؤوس الملأ . فاعلموا يا بنى أمية انكم توليتم هذه الخلافة بغير الحق ، وأخرجتموها من أهل بيت الرسول بالحيلة ، وحاربتم من هو أحق بها من سائر المسلمين ، ولم تفوزوا بها إلا لرغبتكم فى الدنيا ، ولسوف تلقون عاقبة ما جنته أيديكم» ..

فانتهره ابن زياد قائلا : «أتقول ذلك جهارا ، يا خائن ؟» .

فالتفت عبد الرحمن إليه وقد صعد الدم إلى رأسه وتعاظم غضبه ، وتذكر ما افتراه زياد ووالده على عمه حجر حتى تمكن من قتله ، فقال : «لا تقل يا خائن .. وما الخيانة إلا من شأنك وشأن أبيك من قبلك .. وليس فى هذا المجلس أحد لا يعرف أباك زيادا وأمك ، وكلهم يعرفون لماذا سموه ابن أبيك .. اذكر يا عبيد الله شهادة أبى مريم خمار المدينة ، ألم يقل إن جدتك سمية كانت بغيا من بغايا المدينة ؟ هل وصلت أنت وأبوك إلى هذا المجلس إلا بفضل بغيها» ..

فضج الناس واضطرب المجلس ، والكل معجبون بتلك الجرأة ، وتقدم شمر إلى يزيد وهو يقول : «إلى متى يصبر أمير المؤمنين على هذه الوقاحة ؟ .. مرنى فأقطع رأسه فى هذه الساعة» .

فقال يزيد : «خذوه إلى السجن وأتونى برأسه فى الغد الباكر» قال ذلك وهو يضحك ويظهر الاستخفاف ، اغرورقت عينا سلمى رغما عنها . ولكنها فرحت بما أبداه عبد الرحمن من الأنفة والشجاعة . فلما خرج من المجلس ، انخلع قلبها واشتد قلقها . ثم

عادت إلى هدوئها وعزمت على قتل يزيد فى ذلك المساء قبل أن يقتل خطيبها . واشتد بها الهياج فتحولت إلى المقصورة ، وجلست فى الفراش وهى ترتجف وتغطت إلى ما فوق رأسها .

وبعد فترة دخلت العجوز ووراءها جماعة يحملون آنية الطعام والشراب ، وتظاهرت سلمى باليقظة ثم رفعت الغطاء عن رأسها فوقع نظرها على أنواع الأشربة وألوان الطعام .. ورأت بجانب المائدة طبلة ، فتذكرت ما كانت تسمعه عن انشغال يزيد بشرب الخمر وضرب الطبل مما لم يسبق مثله لأحد من الخلفاء . فقالت فى نفسها : «إذا لم يكن وراء قتل هذا الرجل إلا نزع العار عن الخلافة لكفانى شرفا بقتله» .

أما العجوز فلما رأتها ترفع الغطاء عن رأسها فظنتها لا تزال تشكو من الصداع ، فقالت لها : «كيف تشعرين الآن يا بنية ؟» .

قالت سلمى : «أحسبنى أحسن قليلا» .

قالت : «وسيزول بقية الألم متى جلس الخليفة إلى جانبك الليلة وسمعت ضربه على هذا الطبلة ، فإننا قد أعددنا لك كل شىء بأمره» .

ولما غابت الشمس أخذت العجوز تنير الشموع ، فأضاءت الغرفة ولبثت فى انتظار يزيد . وكانت العجوز تتوقع قدومه قبل الغروب ، فلما غابت الشمس ولم يأت استبطأته . فقالت لسلمى : «يظهر أن مولانا الخليفة قد شغل عنا» ، فأوجست سلمى خيفة من سبب تأخره ، وحسبت لذلك ألف حساب .

ثم سمعتا وقع أقدامه على السلم ، فقالت العجوز : «ها هو آت والحمد لله» فخفق قلب سلمى وتحققت دنو الخطر العظيم فتجلدت وجلست فى الفراش . فقالت لها العجوز «انهضى من الفراش الآن

واجلسى إلى المائدة» ، ولم تكد سلمى تهم بالجواب حتى دخل يزيد ، وقد بدل ثيابه بثياب خفيفة وعلى رأسه عمامة صغيرة ، فلما أقبل على المائدة رأى سلمى لا تزال فى الفراش ، فقال لها وهو يبتسم غصبا : «لعلك لا تزالين تشعرين بالصداع ؟» .

فلما سمعت نغمته تفرست فى وجهه ، فإذا هو قد تغير وعلاه الاضطراب ، فانزعجت وحدثتها نفسها بشىء يضمره .. وخافت أن يكون قد اطلع على سرها لعلمها بما فى نفس شمر بن ذى الجوشن . ولم تر بدا من التجلد فتجاهلت ما يبدو على يزيد من القلق وجلست كأنها تتأهب لمبادلته الحديث ..

أما هو فحالما نظر إلى وجهها ، أشرق وجهه وزال انقباضه وعاد إلى هيامه . ودنا من فراش سلمى والطنبور بيده وهو يضرب عليه ويطرب ، والعجوز تقطع اللحم وتناوله وتناولها وتصب الأشربة ، وسلمى تحبب إليه الشرب عساه أن يسكر فيهون عليها الفتك به.

وكان شمر حين علم بعزم الخليفة على الزواج بسلمى ، قد نوى على الوشاية بها انتقاما لما ناله من مجافاتها . فلما رأى موكبها قادما إلى دمشق وتحقق من دخولها القصر ووقوعها من يزيد موقع الاستحسان أخذ فى إعداد المكيدة .. فاغتنم فرصة رأى فيها يزيد خارجا وحده من المجلس ، فاعترضه وهمس فى أذنه : «إن عروسك لا يطمأن لها ، فاحترس على نفسك منها» .. وكان يزيد مسرعا للقاء سلمى ، وقد أخذ الشوق منه مأخذا عظيما .. فأثرت فى نفسه كلمات شمر تأثيرا لم يطل طويلا . ولم يكد يجلس إليها ويتأمل محياها حتى نسى الوصية ، وخاصة بعد أن أسكرته الخمر .

أما شمر ، فلما طال مقام يزيد مع سلمى فى تلك الخلوة ولم يسمع شيئا جديداً، تملك الحسد من نفسه وعز عليه أن تكون سلمى قد تسلطت على قلب يزيد وأنسته حاله ، فندم على أنه لم يصرح له

بحقيقة نسبها ، وأنها ابنة عم عبد الرحمن وخطيبته ، فيتحقق من خيانتها ويخاف غدرها . فلم يهدأ له بال . وفكر فى سبيل ينال به بغيته . وهو يعلم منزلة عبيد الله بن زياد من يزيد ، فسار إليه وكان ابن زياد فى غفلة عن علاقة سلمى بعبد الرحمن ، ولكنه بات اسفا لفشله فى خطبته .

الغيرة

فلما انفض المجلس ، وعلم عبيد الله بذهاب يزيد إلى المقصورة، وأن سلمى هناك فى انتظاره .. ثارت الغيرة فى قلبه ، وطار النوم من عينيه ، وكان قد أوى إلى غرفته فى القصر وتوسد الفراش ، ولكنه لم يجد إلى النوم سبيلا . وكلما تذكر سلمى وجمالها وهيبتها ، وتصور جلوسها إلى جانب يزيد – وهو يؤمن بضعفه ، ولا يحترمه إلا بسبب منصبه فى الخلافة – فكلما تصور ذلك اقشعر بدنه ..

قضى ابن زياد فى غرفته بضع ساعات ، وهو فى قلق شديد يغالب عواطفه ، ولكنه لم يستطع أن يدفع الغيرة عن نفسه .. وفيما هو فى تلك الهواجس ، دخل عليه خادمة وهو يحسبه نائما، فلما رآه مستيقظا قال له : «أن شمر بالباب» .

فقال : «دعه يدخل» وجلس فى الفراش ..

فدخل شمر قائلا : «لقد أتيتك فى أمر هام» .

قال : «وما هو ؟» .

قال شمر : «أنت تعلم عزم الخليفة على الزواج بتلك الفتاة الحسناء ؟» ..

فلما سمع ابن زياد الاشارة إلى سلمى ، اختلج قلبه، وقال : «أعلم .. ثم ماذا؟» !

قال شمر : «أتعلم من هى هذه الفتاة ؟» .

قال : «لا أعلم سوى أنها غريبة .. وأظنها من العراق» .

قال شمر : «نعم إنها عراقية .. ولكن من هو أبوها ؟» .
قال : «أليس هو ذلك الكهل الذى كان معها فى الدير ؟» .
قال شمر : «انه حجر بن عدى» .
فقطـع ابن زيـاد كلامه قائلا : «فيكـون عبد الرحمـن اذن ابن عمها ؟» .
قال : «نعم .. وهو أيضا خطيبها ، وقد قدما ومعهما الرجل الكهل الذى ذكرته وهو الوصى عليها . فأقاموا فى دير خالد يتربصون للفتك بأمير المؤمنين ، وهذا الذى ساعدنى على كشف أمر الرجل وهو يهم بارتكاب تلك الجريمة» .
فبهت عبيد الله، وقد بدا له صدق كلام شمر ، فقال له : «لماذا لم تطلع الخليفة على هذا السر ؟ إننى أخشى أن تكون موافقتها على هذا الزواج مكيدة ، وأخشى أن تكون عازمة على الفتك بأمير المؤمنين» .
قال : «لقد لمحت له تلميحا .. ولكنه لفرط شغفه بها ورغبته فى سرعة الذهاب إليها ، لم يدع لى مجالا للكلام» .
قال : «لا أستبعد أن تكون قد اعتزمت قتله ، وخاصة إذا كانت ثابتة على رأيها مثل ابن عمها ، أو أن تكون عنيدة مثل والدها ، وقد قتل بعناده لأنه لم يلعن عليا. مـا العـمل الآن ؟ .. يجب أن نبلغ الخليفة الأمر بصراحة لئلا نلوم أنفسنا فيما بعد» .
قال : «الرأى رأيك .. ولابد من المبادرة فيه قبل انقضاء الليل» .
فأطرق عبيـد الله برهة ، ثم قـال : «الى بـ «فتح» خصى أمير المؤمنين ، ليبلغه الآن» .
فأسـرع شمر وأتـى بـ «فتـح» فقال له ابن زياد : «اذهب إلى الخليفـة الآن على عجـل ، وقل له إنى أريد أن أخاطبه فـى أمـر ذى بال» .
فضحك فتح ، وقال «كيف أدخل عليه ، وهو فى مجلس طرب

وسرور ، وقد أوصى ألا يزعجه أحد بشىء .. فمن يجسر على الصعود إلى المقصورة ؟ .. حتى ولا أنا» .
قال : «أما أنت فتدخل ، وهو إنما ادخرك لمثل هذه الليلة .. وتلك هى مزية الأغوات ، فامض إليه لأن الوقت ضيق ، وقل له إن عبيد الله يريد أن يراك الآن» .

البغتة

فأسرع «فتح» وهو يتعثر فى أذياله حتى صعد المقصورة ، فرأى الباب مغلقا .. فأنصت ، فسمع يزيد يضرب بالطنبور ويقهقه . فوقف برهة وقلبه يخفق ، وخاف أن يغضب الخليفة إذا دعاه .. فلبث مدة يتردد حتى كاد يرجع . ثم تذكر إلحاح عبيد الله ، فدنا من الباب وقرعه .
وكان يزيد فى قمة سروره ، وقد اتكأ إلى جانب سلمى وأسند رأسه على صدرها ، وتمثلت له السعادة فى أبهج صورها .. فلما سمع قرع الباب ، جلس وصاح : «من بالباب ؟»
فأجابه فتح : «أنا عبدك فتح ..» .
فصاح يزيد : «اذهب .. فتح الله قبرك ، لقد أزعجتنى»
قال : «إنى ذاهب .. ولكننى أتيت فى مهمة ذات بال لمولاى أمير المؤمنين» .
فضحك يزيد ، وقال له : «دع المهمات إلى الغد وامض .. ولو قرع هذا الباب أحد سواك لقتلته» .
قال : «إنى أعلم ذلك يا مولاى ، ولكننى ألتمس من أمير المؤمنين أن يرينى وجهه لحظة ثم يعود» .
فنهض يزيد والطنبور بيده ووقف بالباب .. فهمس فتح فى أذنه : «أن عبيد الله بن زياد يريد أن يكلمك فى شأن يتعلق بالخلافة» .
فقـال يزيد : «قل له إن موعدنا فى ذلك الغد» وهم بالرجوع .

فأمسكه فتح بيده ، وقال له : «لو استطاع تأجيله لما أزعج مولانا فى مثل هذه الليلة ، وقد استمهلته .. فألح على أن آتى إليك الساعة» .

فمشى يزيد والطنبور بيده وقد غضب من عبيد الله وعول على توبيخه . ومشى «فتح» فى أثره .. ثم أمر «فتحا» أن يسبقه ويدعو ابن زياد إليه .

فهرع «فتح» حتى لقى ابن زياد فدعاه ، فجاء واستقبل الخليفة فى دهليز منفرد ، وقبل أن يتكلم يزيد ابتدره عبيد الله قائلا : «أنا أعلم أنى أزعجت أمير المؤمنين فى ساعة الطرب .. ولكننى اطلعت على سر لا يصح السكوت عنه إلى الغد وإلا تعرضت لخطر شديد .. فهل يأذن مولاى الخليفة بخلوة ؟» .

فبغت يزيد وسار فى أثره إلى غرفة فيها شمعة مضيئة ، وليس فيها أحد . فلما خلا به قال : «بلغنى يا أمير المؤمنين أن عروسك التى حملناها إليك اليوم لا تقل خطرا عن عبد الرحمن الذى تعمد قتلك بالأمس ..» .

فبغت يزيد وقال : «وكيف يكون ذلك ؟» .

قال : «لأنها ابنة حجر بن عدى، وعبدالرحمن ابن عمها وخطيبها» ..

قال يزيد: «ومن أنبأك ذلك ؟» .

قال: « أنبأنى شمر الذى كشف لنا الخديعة الأولى ، فأخشى أن تكون سلمى هذه إنما أتت إلى منزل الخليفة لمثل الأمر الذى هم به ابن عمها» .

فأطرق يزيد ثم قال: «سمعت مثل هذا التلميح من شمر.. ولكن ما المانع ألا تكون هى مثله، وخاصة بعد أن أتيح لها أن تكون من نسائى..» .

قال عبيدالله: «قد يكون ذلك إذا عرفت قيمة السعادة التى خصها بها أمير المؤمنين، وقد تكون شريرة عنيدة مثل أبيها وابن عمها،

وترتكب أمرا عظيما يسوء المسلمين ويهدد ركن الإسلام» .

قال يزيد: « كيف نعرف الحقيقة يا عبيدالله ؟» .

قال عبيدالله: «نعرفها من البحث بين أثوابها عن سلاح أو سم أو نحوه» .

قال يزيد: «لا يمكن أن يكون معها سلاح أو نحوه، ولو كان معها شئ من ذلك لظهر لعجوزنا عندما بدلت ثيابها فى الحمام» ..

قال عبيدالله: «وهل تحقق مولاى من دخولها الحمام ؟» .

قال يزيد: «لا ريب من دخولها لأنى أوصيتهم أن يدخلوها الحمام، وقد سألت العجوز فأجابت..» ثم توقف عن الحديث، وتذكر أنه لما سأل العجوز عن حمامها، لم تجبه جوابا صريحا .

فقال: «وسأسأل هذه العجوز ثانية إذا كانت قد فعلت ما أمرتها به.. فإن كانت لم تدخلها الحمام تزداد الشبهة عندى فنفتشها» قال ذلك وهم بالخروج. فاستوقفه عبيدالله، وقال: «لايكفى أن نبحث فى أثوابها.. بل ابحث فى كل مكان بالغرفة، فإذا وجدت شيئاً فلا تتسرع فى الأمر.. بل كن حازما مثل أبيك، وها أنا ذا منتظر حتى يأتينى أمر مولاى» .

كشف المخبأ

وكانت سلمى لما سمعت الخصى يخاطب يزيد ويلح عليه بالحضور إليه، دخلها الشك على أنها لم تتصور أنه جاء لمثل هذا الغرض، وكأن نفسها حدثتها بشر يهددها فاختلج قلبها، ولكنها تجلدت انتظرت عودته..

وكانت العجوز قد انزوت فى أحد جوانب الغرفة وغلب عليها النوم، فنامت وقد تدلى رأسها وهى جالسة.

فلما عاد يزيد توقعت أن يخاطبها أو يجلس إلى جانبها، فإذا هو يصيح بالعجوز.. فأفاقت مذعورة وأسرعت إليه، فأخذ بيدها وخرج من

الغرفة. فلما خلا بها سألها إذا كانت أدخلت سلمى الحمام. فتلعثمت وأقرت له بأنها رأتها منحرفة الصحة.. فعنفها ولكنه أوصاها بالسكوت، ودخل وجلس إلى سلمى، فظنت لأول وهلة أنه عاد إلى ما كان فيه، وليس هناك ما يوجب الشك.. فإذا به قد مد يده إلى صدرها وجعل يجس جوانبها فخافت، ولكنها ظنته يداعبها. أما هو فتظاهر بمداعبتها، ولم ير معها سلاحا، فقال للعجوز: «ألم أقل لك أدخليها الحمام ؟..»

قالت: «بلى يا مولاى.. ولكنها كانت منحرفة المزاج، فلم أشأ أن أزعجها».

قال: «خذيها الآن وسأبقى هنا فى انتظاركما»، وأشار إليها أن تأخذها إلى غرفة قريبة فى أول الدهليز.

فتحيرت سلمى بماذا تجيب، ولكنها أطاعته وخرجت مع العجوز، وهى لا تخاف من الحمام لأن الخنجر ليس معها. أما هو فأخذ يفتش فى جوانب المقصورة حتى قلب الفراش ورأى الخنجر تحته، فلم يبق عنده شك فى المكيدة.. فأخذ ينتفض من شدة التأثر، وحدثته نفسه أن يقتلها بذلك الخنجر حالا. ولكنه تذكر كلام ابن زياد، فأسرع إليه والخنجر فى يده، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما.

ولكن شغفه بسلمى وإعجابه بجمالها هونا عليه التماس العذر لها، فقال: «ولكننى مع ذلك لا أرى أن أحكم عليها بمجرد الشك، إذ قد يتفق أن يكون هذا الخنجر هناك بالصدفة، وهب أنها كانت متعمدة قتلى.. فهل يستحيل أن تتوب ؟!».

فأدرك عبيدالله غرض يزيد، فقال: «لقد أصاب مولانا.. لنبعث إليها من يستجوبها ويسألها عن هذا الخنجر .. فإذا أقرت بجريمتها عنفها، واطلب منها أن تسعى إلى التوبة والتماس العفو منك، فإن فعلت بقيت وألا فالرأى لك».

فقال يزيد: «نعم الرأى هذا.. ولكننى لا آمن أن أعهد بهذه المهمة إلى سواك».

فلما أذن يزيد لعبيد الله بذلك، أسرع إلى الغرفة التى كانت سلمى فيها..

وكانت سلمى لما نزلت إلى تلك الغرفة والعجوز معها، ولم تجد هناك شيئاً من معدات الحمام أدركت أن أمرها لم يبق مكتوما.. فلم تعد تعبأ بشئ وقد يئست من الحياة، ولولا أن قلبها متعلق بعبد الرحمن، وأن أملها معقود ببقائه، لما ترددت لحظة فى الإقدام على الموت، وكانت العجوز أيضاً مندهشة، ولم تفهم معنى هذا التغيير المفاجئ، ولم يستقر بهما المقام هناك حتى جاء ابن زياد وقرع الباب، فخرجت له العجوز.. فقال لها: «أين سلمى ؟».

قالت: «هى هنا» وأشارت إلى داخل الغرفة.

سلمي وعبيدالله

فدخل عبيدالله، وقد خبأ الخنجر تحت أثوابه.. وكانت سلمى حين سمعت صوته ارتعدت فرائصها، فلما أقبل عليها ورأى جمالها، قال فى نفسه: «حرام أن يمس هذا الجسم بسوء» فتلطف فى الكلام، وقال: «لقد جئت من عند أمير المؤمنين أسألك عن أمر أرجو أن تجيبى عليه بالصدق».

فظلت سلمى ساكتة مطرقة، ولكن قلبها اشتد خفقانه. فلما لم تجب، مد يده إلى جيبه وأخرج الخنجر، وقال لها: «هل سبق أن رأيت هذا الخنجر».

فلما رأت الخنجر أيقنت بفشلها، وظلت مطرقة لأنها لم تجد جوابا تجيب به.

فتوسم عبيد الله من سكوتها خيراً، وقال لها: «يظهر أنك قد ندمت على تهجمك فى مثل هذه الحال، والعاقل من رأى العبرة فى غيره

فاعتبر. أما كفاك ما رأيت من فشل عبدالرحمن وطيشه حتى ألقيت بنفسك إلى التهلكة. ولا ريب أنك إنما فعلت ذلك بإغراء بعض الجهال، فإذا كنت متعلقة بذلك الشاب الجاهل، فاعلمى أنه قتل».

ولم يكن عبدالرحمن قد قتل بعد، ولكن عبيدالله ظن أن يأسها منه يؤدى إلى استسلامها.. ولكنه لم يبلغ إلى هذا القول، حتى شهقت سلمى، وأطلقت لنفسها عنان البكاء لأنها تصورت فشلها وفشل حبيبها وذهاب آمالها أدراج الرياح. فلما سمعت أنه فى عداد الأموات لم تستطع أن تمسك نفسها عن البكاء.

فلما سمعها عبيدالله تبكى، ظن أنها ندمت على ما فرط منها.. فجلس بجانبها على وسادة، وقال بنغمة المشفق: «لا تبكى يا سيدتى ولا تخافى.. فإذا كنت نادمة على ما بدا منك، فأنا أتوسل لدى أمير المؤمنين ليعفو عنك وأظنه سيفعل».

فلم تجب، ولكنها كفت عن البكاء ولبثت صامتة، وتحركت من مكانها لتبتعد عن عبيدالله، وقد تحول خوفها إلى غضب، وأصبحت بعد سماعها بموت عبدالرحمن لا تبالى بالحياة.. بل تتمنى الموت، ولكنه حمل سكوتها محمل القبول، فقال لها: «وأنا أضمن عفو الخليفة عنك إذا اعترفت بذنبك ولعنت أبا تراب».

فلم تعد سلمى تصبر على ما تسمعه، فرفعت رأسها وقالت: «أمض يا ابن زياد من أمام وجهى».

فقال وهو يمازحها: «وهل تريدين أن أبعث أمير المؤمنين ليكون العفو على يديه؟» ..

قالت: «ألا تزال تذكر العفو.. وممن أطلبه؟.. أمن يزيد بن معاوية دقاق الطنابير ومعاقر الخمور. ولماذا أطلب العفو؟.. ألكى آمن ظلمكم.. قتلتم عبدالرحمن وجئتم تلتمسون بقائى.. اقتلونى فما لى رغبة فى الحياة بعد الذين ماتوا قبلى..» قالت ذلك وقد اختنق صوتها

وهى تتجلد ولا تريد أن يبدو الضعف عليها وعبيدالله يعجب لجرأتها. وكان يختلس النظر إلى وجهها، وهى تتكلم، فسحر بجمال عينيها وملامح فمها.. ثم عادت إلى الكلام، فقالت: «ثم أنتم تجعلون لعن على شرطاً للعفو وهو أولى الناس بالفضل.. دعونى من عفوكم وألحقونى بعبدالرحمن.. ألحقونى به.. اقتلونى».. ثم خنقتها العبرات، فسكتت.

فأجابها عبيدالله وهو يخفف عنها: «يظهر أنك لم تفهمى حقيقة حالك.. إنك متهمة بالشروع فى قتل الخليفة متعمدة، وهو إنما بعثنى لأقتلك.. فأشفقت على شبابك وأردت لك النجاة، أهكذا يكون جوابك؟..».

قالت: «لاجواب عندى غير هذا.. إذا كنت قد جئت لقتلى، فأنا أقول لك اقتلنى»...

فقطع ابن زياد حديثها قائلا: «أتفضلين القتل وخسارة الدنيا والآخرة على أن تلعنى عليا، وتستغفرى الخليفة.. وأنا واثق بأنك لم تقدمى على هذا الجرم إلا بإغراء..».

فقطعت كلامه، قائلة: «لم يغرنى أحد.. ولكننى تعمدت قتله انتقاما لأبى وابن عمى وسعيا فى صالح المسلمين، فاقتلنى، فما أنا خير ممن قتلتموه قبلى».

فقال عبيدالله: «إنى أنصحك لوجه الله أن تقلعى عن هذه الحماقة، ولا فائدة من العناد.. فقد أصبحت وحيدة لا نصير لك إلا أن تشفقى على شبابك وتطيعينى».

قالت : «اقتلنى أو أعطنى هذا الخنجر فأغمده فى أحشائى» قالت ذلك ومدت يدها إلى الخنجر، فأخفاه وعلم أن الكلام معها لا يجدى نفعا، فتركها وعاد إلى يزيد.

وكان يزيد فى انتظاره على مثل الجمر، وهو يود أن ترجع سلمى

عن عزمها وتعتذر، وتبقى عروسا له.. فلما عاد عبيد الله قص عليه ما بدا منها من أوله إلى آخره، فعاد يزيد إلى غضبه، وقال: «قبحها الله من خائنة منافقة».

فلما رآه ابن زياد فى تلك الحال، قال له: «ماذا يرى مولاى أن نفعل بها؟».

قال يزيد: «وكيف إذن؟ أأعفو عنها؟».

قال عبيده: «إذا عفوت عنها كان ذلك من حلمك وسعة صدرك، وكذلك كان يفعل أبوك رحمه الله.. فقد كان يسمع الإهانة من نساء بنى هاشم ورجالهم، فيسكت عنها وهو قادر على الانتقام وهو دهاء امتدحه العقلاء.. ولولا ذلك ما تيسر له تأييد سلطانه. فإذا رأيت أن تترفع عن الانتقام من هذه الفتاة وتخرجها من قصرك اتقاء شرها، فعلت ما هو جدير بابن معاوية بن أبى سفيان..».

قال يزيد: «أتطلب منى الإفراج عن هذه الخائنة بعد أن تحققت من عزمها على قتلى؟.. لا أظن أن معاوية كان يفعل ذلك فى مثل هذه الحال»..

قال عبيدالله: «ولكننى لا أريد أن يعلم أهل القصر أن هذه الفتاة تجرأت على الفتك بالخليفة لئلا يهون الإقدام على ذلك فى عيون الآخرين..».

قال يزيد: «ما العمل إذن؟..»

قال عبيد الله: «قلت لك افعل كما كان يفعل أبوك.. فإذا لم يكن من قبيل العفو بالحلم، فعلى سبيل القتل بالعسل ألم يكن أبوك يستخدمها فى قتل أعدائه بالعسل المسموم؟»، ألا تذكر طبيبه النصرانى ابن آثال؟..».

قال يزيد: «سمعت ذلك، ولكننى لم أتحقق منه».

قال عبيدالله: «ألا تذكر لما أراد والدك أن يبايعك الناس –فى

حياته– ما كان من أمر عبدالرحمن بن خالد بن الوليد؟».

قال يزيد: «وأى شئ تعنى؟».

قال عبيدالله: «أعنى أن أباك لما أراد أن يعهد بالخلافة إليك من بعده، جمع أعيان أهل الشام إليه، وقال لهم: «لقد كبرت سنى، واقترب أجلى، وأريد أن أستخلف عليكم.. فمن ترون؟». فقالوا: «عبدالرحمن بن خالد بن الوليد» فسكت وأضمرها، ودس ابن آثال الطبيب الذى ذكرته، فسقى عبدالرحمن هذا قدحا من العسل مسموما، فمات والناس يحسبونه مات بعلة. وفعل ذلك أيضاً بالاشتر، وكان على بن أبى طالب قد جعله واليا على مصر، وهكذا فعل أبوك أيضاً بالحسن بن على لما رأى ما كان من احاله فى أمر الخلافة، فدس إلى جعدة بنت الأشعث زوجة الحسن، وقال لها: «إن قتلت الحسن، زوجتك يزيدا» فدست له السم، فلما مات الحسن بعثت جعدة إلى أبيك تطالبه بك، فأجابها: «إنى أضن بيزيد» وقد مات فى أيام أبيك كثيرون من أكابر الناس بهذه الحيلة.. وكان ابن آثال هو الذى يركب لهم السموم ويمزجها بالعسل فهل كان أبوك عاجزا عن قتلهم بالسيف؟.. كلا ولكنه كان يرى أن السم أهون سبيلا، فإذا كان لابد من قتل هذه الفتاة، فماذا يمنعك من أن تفعل أنت أيضاً مثل ما فعل أبوك؟.. وما هى ألا جرعة تشربها فتموت والناس يحسبونها ماتت بمرض».

أبو الحكم الطبيب

فلما فرغ عبيدالله من كلامه، قال يزيد: «إلى بأبى الحكم..»

فخرج عبيدالله، فرأى شمر وسأله: «أتعرف منزل أبى الحكم الطبيب النصرانى؟».

قال شمر: «أعرفه.. إنه بالقرب من هذا القصر».

قال: «سر إليه.. وقل له إن أمير المؤمنين يدعوك إليه الساعة..».

وبعد قليل عاد شمر وهو يقول: «إن الطبيب بالباب» فأمر بدخوله.

وكان أبو الحكم شيخاً تدلت على صدره لحية بيضاء، وظهرت الشيخوخة على وجهه وتجعدت بشرته.. فحيا الخليفة ، فابتدره يزيد قائلا: «اجلس يا أبا الحكم».

قال يزيد: «دعوناك لنستعين بعلمك على الخونة، أهل الغدر»..

ثم قال: «هيئ لنا جرعة عسل قاتلة، واسقها فى الفجر لفتاة تراها جالسة مع عجوزنا فى المقصورة.. واحذر أن يعلم أحد بذلك»..

قال أبو الحكم: «عجبا يا مولاى.. كيف تحذرنى من هذا الأمر، وأنت تعلم أنى كنت أفعل مثله بأمر أبيك، ولم يعلم به أحد..»

قال يزيد: «فامض الآن وأعد العقاقير، واستعن بحبيبنا عبيدالله على ذلك».

عامر

أما عامر وما كان من أمره بعد خروجه من الدير، فمشى نحو دمشق وهو يفكر فى سبيل يدخل به دار الخليفة ليستطلع أحوال عبدالرحمن وسلمى، ومازال سائراً حتى دخل دمشق.. فسار إلى المسجد وهو يعلم أن دار الخليفة بجانب المسجد. فلما أقبل على الجامع رأى الصلاة قائمة ويزيد يخطب فى الناس. فسجد مع الساجدين، وأخذ يتفرس فى الوجوه لعله يرى أحداً يعرفه ليستعين به أو يسترشده.. فوقع نظره على شاب خيل له لأول وهلة أنه يعرفه. فتفرس فيه جيدا فتذكر أنه رآه فى غير ذلك المكان، وما لبث أن عرفه وهو الفرزدق الشاعر الشهير.. وكان يومئذ فى أول العقد الرابع من عمره، وكان سبب معرفة عامر به أن والد الفرزدق جاء إلى الإمام على بعد وقعة الجمل بالبصرة «سنة ٣٦هـ»، ومعه ابنه الفرزدق –وكان صبيا– وقال لعلى: «إن ابنى هذا من شعراء مصر، فاسمع منه»، فأجابه على: «علمه القرآن»، وكان عامر حاضرا فى ذلك المجلس، وأعجب بغيرة الإمام على الدين. ثم

شاهد الفرزدق بعد ذلك بأعوام فقال له: «إن تلك الكلمة مازالت ترن فى أذنى.. فقررت ألا أقول الشعر حتى أحفظ القران».

وكان عامر يعلم أن الفرزدق متشيع لأهل بيت الرسول سرا، فرأى أن يستعين به فى الأمر. فلما انقضت الصلاة وتفرق الناس، سار فى أثره نحو القصر.. فاعترضه وأوقفه وحياه فعرفه الفرزدق ورحب به، فطلب الخلوة به، وشكا له حاله فاستغرب الفرزدق قصته، وقال: «ما العمل الآن؟ وما الذى أستطيعه؟.. إن فى الأمر مشكلة، ولو شاورنى عبدالرحمن لأشرت عليه بالعدول عن عزمه، لأن الأمر قد استتب لهؤلاء.. ولا حيلة فى النجاة من أيديهم، فلا يفيدنا التمرد شيئاً».

فتنهد عامر وقال: «ولكن لا خيرة فى الواقع.. وإنما أريد منك أن تصحبنى معك إلى مجلس الخليفة، فأقف ببابه فى جملة الشعراء.. لعلى أسمع شيئاً عما استقر عليه الرأى بصدد عبدالرحمن..».

قال الفرزدق: «إنى أجعلك راويتى» وكان الشعراء فى الجاهلية وأوائل الإسلام يصطحبون الرواة حيثما رحلوا، ولكل شاعر راوية خاص يحفظ شعره ويروى أقواله .. فإذا دخل الشاعر على الخليفة دخل راويته معه وجلسا متحاذيين.. فاستحسن عامر الرأى.. فتنكر وسار مع الفرزدق حتى دخلا دار الخليفة ووقفا مع الشعراء، ولم يأذن يزيد للشعراء بالدخول عليه فى ذلك اليوم، وأما عامر فكان يستطلع الأحوال ويتنسم الأخبار.. وقد شاهد عبدالرحمن بنفسه عندما ساقوه مغلولا للمرة الأولى، ثم جاء أحد الذين كانوا معه وقص ما ظهر من بسالته وهو معجب بذلك.. ولما استقدموه للمرة الثانية وجاء الرجل قص ما كان من أمر يزيد بقتله.. فوقع عامر فى حيرة وبحث عن الحجرة التى سجن فيها، فعلم أنها حجرة كانت فى عهد الرومانيين حماما يغتسل فيه والى دمشق، وأصاب عامر الجزع، فلم يستطع صبرا، فأخذ يفكر فى حيلة ينقذ بها عبدالرحمن ثم يفكر فى سلمى

السرداب

ثم تذكر الشيخ الناسك.. فاستأذن «الفرزدق وخرج مسرعا إلى الغوطة حتى أطل على الدير، فالتمس الناسك عند الجوزة حيث لقيه فى المرة الأخيرة.. فوجده متكئا فوق حجر، ولما سمع نباح الكلب جلس ونظر إلى عامر.. فلما عرفه أرخى شعره على عينيه وصاح به: «أين سلمى ؟..».

قال: «إنها ياسيدى فى قصر يزيد، لا أدرى ما آل إليه حالها.. وإنما جئتك فى أمر لا أخال أحدا يهدينى فيه سواك»..

فذكر له حال عبدالرحمن باختصار ثم قال: «وفى هذه الليلة يقتلونه»..

ظل الشيخ الناسك مطرقا ولم يجب.. ثم قال: «ألم تعلم أين سجنوا عبدالرحمن ؟..».

قال: «إنه مسجون يامولاى فى الحمام القديم فى قصر يزيد».

فرفع الناسك رأسه وقال: «أبشر بالفرج يا عامر.. ولكن يجب أن تكون رجلا وتتشدد وتكابد الخطر فى إنقاذ عبدالرحمن».

فقال: «إنى مستعد أن أفديه بروحى...»

قال الناسك: «أتعرف كنيسة النبى يحيى التى جعل المسلمون نصفها جامعا، وهى بجوار القصر؟».

قال: «نعم أعرفها».

قال: «ادخل الجزء الباقى للنصارى الذى يصلون فيه، ولكن يجب أن تحتال فى البقاء بالكنيسة إلى الليل. فإذا غفلت العيون، سر إلى جانب المحراب، فتجد هناك رخامة على شكل أسد، فإذا رفعت هذه البلاطة رأيت سلما قصيراً يؤدى إلى سرداب تحت الأرض.. فامش فى ذلك السرداب وأنت تتحسس الجدران بيدك واجعل اعتمادك على اليد اليسرى. حتى تقبل على باب صغير يؤدى إلى الحمام. فإذا وفقت

للوصول إليه وجدت عبدالرحمن حيا، فحل قيوده وعد به فى نفس السرداب، وأجعل فى هذه المرة يدك اليمنى دليلك أثناء رجوعك، ولا تخف لأنك ستصل بعد طوال المشقة إلى مكان خارج سور المدينة.. فإذا نجوتما فعودا إلى».

وكان الناسك يتكلم وعامر يصغى لقوله فى اهتمام، ثم نهض فقبل يد الناسك فقبل الناسك رأسه ودعا له بالتوفيق.

الكنيسة

وصل عامر إلى الكنيسة ساعة الغروب، فاشتم رائحة البخور وسمع أصوات المنشدين، فعلم أن الناس فى الصلاة. فدخل فى جملة الداخلين ولم ينتبه له أحد، وأكثرهم من عرب غسان، فكانوا إذا نزلوا دمشق دخلوا كنائسها وسمعوا الصلاة فيها. وكان قد أسلم معظم الغساسنة على أثر الفتح، ولكن جماعة كبيرة منهم كانوا لايزالون على النصرانية، وكانت فى دمشق كنائس أخرى غير هذه فلما دخل عامر كنيسة مارى يوحنا المشار إليها، لم يستغرب أحد دخوله..

ونحو العشاء، انقضت الصلاة وتفرق الناس.. فتظاهر هو بالنوم والضعف، فلما خلت الكنيسة من المصلين وصعد القساوسة إلى غرفهم، دار الخادم على الشموع وجعل يطفئها.. فلما رآه عامر يفعل ذلك ورأى الظلام يتكاثف تذكر سردابه، وما قد يكون فيه من الظلام الحالك، فقال: «لابد لى من مصباح أو شمع أستضئ به فى طريقى» فعول على سرقة بعض الشموع، فلما دنا الخادم منه وكلمه مستفهما عن غرضه. فقال له عامر: «إنى رجل مريض: وقد نذرت أن أبيت الليلة تحت صورة القديس يوحنا لعلى أبرأ من علتى..».

فأعجب بإيمانه، ولكنه استطال اقامته، فقال له: «ولكننى أريد أن أغلق الكنيسة..».

فقال عامر: «إذا كنت خائفا منى، فأغلق الباب وخذ مفاتيحه معك،

ودعنى أنام هنا إلى الصباح لأنى قد بدأت أشعر بالراحة.. فعسى أن ينفعنى إيمانى»..

فلم ير الخادم بأسا من بقائه، وقال له: «إن بركة العذراء تعجل بشفائك»، فتظاهر عامر بالنوم، فدعا له الخادم بالشفاء وتركه، وأغلق باب الكنيسة وخرج إلى غرفته..

وصبر عامر برهة، وهو ينظر إلى الكنيسة وعلو سقفها وما تدلى منها من المصابيح والشموع وكلها مطفأة ألا مصابيح صغيرة معلقة أمام الأيقونات الكبرى، ثم تذكر عبدالرحمن وما هو فيه من الخطر، فهب من مخبئة.

عبدالرحمن وشمر

وكان قد راقب البلاطة التى وصفها له الناسك، فسار حتى وقف بقرب وتأملها.. فإذا هى كبيرة وليس فيها موضع تمسك به، فدفعها حتى تزحزحت، فأخذ يجمع الشمع ليحمله معه ويستنير به فى ذلك السرداب، وأشعل واحدة من مصباح، ورفع البلاطة بحذر وخفة فأحس بنسيم بارد خرج من السرداب وفيه رائحة عفنة، فاستبشر بسهولة الطريق.

فنزل على درجات من الحجر والشمعة فى يده حتى وصل إلى قاع السرداب، فغاصت قدماه فى بقايا مياه وأوحال، وحام البعوض حول الشمعة.. ولم يخط بضع خطوات حتى جاءته نسمة قوية أطفأت الشمعة فأظلم السرداب، فرمى الشمعة ومشى وهو يتحسس ويتلمس ويساره على الحائط وقد أحس برطوبته وقلبه يخفق، ولا يسمع غير طنين البعوض، ولا يرى شيئاً لشدة الظلام، تارة يغوص فى الأوحال وطورا يتعثر بالأحجار، حتى انتهى إلى مكان جاف.. فأسرع فيه وهو يحملق بعينيه ويسترق السمع لعله يرى بصيصا أو يسمع حفيفا..

وفيما هو فى ذلك، سمع صوتا بعيداً لم يفهمه لبعده.. فأسرع فى

خطواته والصوت يقرب منه حتى عثرت رجله بحجر، فوقف وتفرس فى المكان، فإذا هو عند آخر السرداب وأمامه درجات لابد له من صعودها. وقبل أن يخطو عليها رأى نورا ضعيفا خارجا من شقوق باب صغير فى أعلى السلم، وسمع قائلا يقول: «لا تهددنى بالقتل.. فإنى لا أخاف الموت».

فعلم عامر أنه وصل، وعرف صوت عبدالرحمن، فدنا من الباب.. ووضع عينيه على ثقب، فرأى رجلا واقفا بيده مصباح، وتفرس عامر فى الرجل الواقف، فعرف من بياض برصه أنه شمر، ورأى فى يده سيفا مسلولا وعرف أن الجالس عبدالرحمن، ولم يكد عامر يراهما، حتى سمع شمر يقل: «يا للعجب من وقاحتك ووقاحة ابنة عمك.. أنت تقول اقتلونى لا أبالى، وهى تقول كذلك، وأنتما مقتولان لا محالة. قتلت سلمى فى هذه الساعة وأتيت لأقتلك ولكننى قبل أن أخرج هذه الروح النجسة، أطلب إليك بأمر أمير المؤمنين أن تلعن عليا.. فإذا فعلت علمت أنك نادم على ما بدى منك من تعمد قتل الخليفة...».

فقطع عبدالرحمن كلامه وقال: «أتخوفنى يا شمر بقتل سلمى وهى بعيدة عنكم لا تنالها سيوفكم؟..»

فضحك شمر، وقال: «أقول لك إنك جاهل مغرور ولا تصدقنى. إننى قد سقت سلمى إلى هذا القصر فى هذا الصباح ليتزوجها الخليفة، وقد ماتت منذ ساعة. وإن شئت أن أخبرك كيف ماتت، فأقول لك أنها تجرعت السم بالعسل.. وأما أنت فسأميتك بحد هذا السيف»، قال ذلك وهز السيف بيده، فاهتزت أعضاء عامر وتحفز لخلع الباب، ولكنه رأى شمر قد وقف ولم يقترب من عبدالرحمن.

أما عبدالرحمن، فلما تحقق من موت سلمى صاح صيحة قوية،

وتململ والأغلال تمنع من الحركة.. فسمع عامر صلصلة أغلاله، ثم سمعه يقول: «تبا لكم يا أهل الغدر.. أتقتلون سلمى وتلتمسون بقائى ثم تطلبون منى ثمن هذا البقاء أن ألعن خير الناس بعد الرسول. تطلب منى يا شمر لعن على.. عجل بقتلى يا أنذل الناس، لألاقى حبيبتى فى مكان لاغدر فيه ولا خيانة «اقتل، قتلك الله.. ولو أبقيتم على سلمى لكنت آسف على الحياة من أجلها، ولكنكم أرسلتموها إلى النعيم قبلى.. فألحقونى بها.. آه يا سلمى يا ابنة حجر بن عدى.. قتلوك وألحقوك بأبيك.. ما أقسى قلوبهم، فابتدره شمر قائلا: «قد علمت سلمى أنك مت قبلها، وها أنا سأقتلك الساعة، فاختر لك موتة» قال ذلك ووخزة بطرف السيف فى كتفه وهو يقهقه، فصاح فيه عبدالرحمن: «أضرب يا شمر.. اقتل.. اضرب عنقى..».

وكان عامر ينظر ويسمع - وكانت أول مرة سمع فيها بمقتل سلمى- وكان يحسبها فى أمان. فلما سمع بقتلها ورأى ما رآه من شمر، خاف أن يسبقه شمر بالسيف فيقتل عبدالرحمن.. فأسند ظهره إلى جانب الباب، وتجمع بكليته وخنجرة مسلول بيده، ورفس الباب رفسة كسره بها.. ووثب حتى وقف فى وسط الحجرة. ففاجأ شمر ووقع السيف من يده، فابتدره عامر بالخنجر وطعنه فى جنبه فوقع يتخبط فى دمه، فظن عامر أنه مات وتحول إلى عبدالرحمن وحل قيوده وكسرها، وعبدالرحمن مبهوت وهو يحسب نفسه فى حلم، ولا يدرى ماذا يقول، وعامر لم يزد على قوله: «لا تخف يا عبدالرحمن.. جاءك الفرج» وسكت وهو يشتغل بحل القيود، ولم يبق فى الحجرة صوت غير أنين شمر وهو ملقى على الأرض..

خطر آخر

فلما فرغ عامر من حل القيود، قال له: «اتبعنى» وعاد إلى

السرداب، فمشى عبدالرحمن فى أثره.. وقال له عامر: «امسك بذيل ردائى» فأمسك بذيله ومشيا وهما يلتسمان الحائط إلى اليسار وعبدالرحمن لايزال يحسب نفسه فى حلم.. فقضيا فى السرداب زمنا طويلا ولم يخرجا إلى النور، فظن عامر أنه أخطأ الطريق ثم أحس بانحباس الهواء عنهما وضاق تنفسهما، فحدثته نفسه أن يعود.. ثم تذكر قول الناسك وما أنذره به مما سيلاقيان من المشقة والخطر، فعول على الاستمرار فى طريقه حتى اشتد بهما الضيق وأوشكا أن يختنقا من كثرة العفونة وقلة الهواء.. ولحظ عبدالرحمن اضطرابه، فقال له: «لا تأسف على حياتنا ياعماه.. لا بأس من موتنا معا فى هذا السرداب لا يعلم بنا أحد فإنى لا أرى الحياة عزيزة بعد موت سلمى. وأما أنت...».

فابتدره عامر قائلا: «ولا أنا أحب البقاء بعدكما.. ولكننى لا أحب أن نموت قبل الانتقام من هؤلاء الأشرار..».

فقال عبدالرحمن: «دعنا نمت يا عماه.. ما أحلى الموت، فإنه يقربنا من حجر وابنته. لا تأسف على الحياة بعدهما، ولكننى أحب قبل الممات أن أعلم كيف قتلوها، وما الذى أوصلها إليهم، وكيف وقعت فى الفخ؟».

فقص عليه عامر كل ما وقع له مع سلمى بعد سفره، وعبدالرحمن يعجب بشهامتها وفيما هما فى تلك الحال، سمعا طرقا على سطح السرداب فوقهما كأنه نبش بالمعاول. فقال عامر: «أنى أسمع نبشا، فعسى أن يكون الله قد فتح علينا» فأصاخا بسمعيهما وإذا بصوت النبش يتعاظم، وبعد قليل رأيا التراب يتساقط عليهما فتقهقرا إلى الوراء، ثم انفتحت كوة فى السقف دخل منها نور ضئيل كأنه نور الفجر، وجرى النسيم فانتعشا. فقال عامر: «لقد فتح الله علينا بابا للفرج» وهما بالمسير فسمعا جلبة، وفيها صوت رجل يقول لرفيقه:

«أنهم أبوا ألا أن يدفنوها فى هذا الفجر، وما ضرهم لو صبروا إلى الصباح».

فأجابه الآخر: «إن هذه المسكينة لم تمت موتا عاديا، ولكنهم أماتوها بالسم، وأظهروا أنها ماتت بسبب المرض، وكم من مرة جئت فى مثل هذه المهمة فى أيام معاوية، فكلما أراد قتل رجل سقاه قدحا من العسل وأمر بدفنه، ولكننا قلما رأينا ذلك فى النساء كما فعل ابنه...».

وكانا يتكلمان ويشتغلان فى النبش، فما أحسا ألا والمعول قد وقع فى السرداب، فصاح أحدهما: «أنى أرانى فوق بئر وأخاف أن يصعد إلينا منها عفريت أو جان...».

النجاة

ولما سمع عامر الحديث، أدرك أنهما صارا تحت المقبرة خارج المدينة، وعلم أن الرجلين يحفران قبر سلمى، وحبس عبدالرحمن نفسه، ولكن الرطوبة والهواء غلبا عليه، فعطس عطسة دوى لها السرداب، فأجفل الرجلان وصاح أحدهما: «ألم أقل لك أن المكان مسكون؟.. قال ذلك وفر، وتبعه رفيقه.. فمشى عامر وعبدالرحمن حتى خرجا من السرداب، وتلفتا فإذا هما فى مقبرة خارج المدينة وقد لاح الفجر.. فأسرعا فى الخروج من المقبرة وعبدالرحمن يود البقاء ليرى سلمى ولو ميتة، وقال عامر: «ارجع يا بنى إلى رشدك واصبر.. أن الله مع الصابرين.. هيا بنا إلى الشيخ الناسك، فانه فى انتظارنا قرب الدير فوق قبر حجر».

فقال عبد الرحمن: «وسلمى؟ أأتركها وحدها بين هذه القبور؟».

فقال عامر: «تعقل يا عبد الرحمن وتدبر الامر بالحكمة. فقد كنت فى شك من مقتل حبيبتنا سلمى.. أما الآن وقد تأكدنا من وقوع المصيبة، فاذا كنا رجالا صبرنا صبر الرجال، وانتقمنا لقتيلنا بما

يشفى غليلنا»، فقال عبد الرحمن: «نعم ننتقم ولكن بماذا؟ إنى لا أرضى الانتقام لسلمى إلا بقتل قاتلها الذى يسمى نفسه خليفة.. لقد استقبلت الموت من اجلى. ولولاى لم تدخل قصر يزيد ولا أصابها ما أصابها».

الحسين وابن الزبير

فابتدره عامر قائلا: «ولكنها قالت إن بقاءك حيا بعدها يفرح قلبها وهى فى القبر.. هيا بنا الى الشيخ الناسك نستشيره، إنه والله ذو فضل علينا»، قال ذلك وقام.. فنهض عبد الرحمن، ومشيا فى أطراف الغوطة بحيث لا يشعر بهما أحد حتى اقتربا من الجميزة. فرأيا الناسك راقدا فوق قبر حجر. وقبل وصولهما نبح الكلب فجلس الناسك وتطلع، فلما رآهما قادمين ارخى شعره على وجهه، ونادى عبد الرحمن فلباه، وهو يبكى ويقول:

«ما بالك لم تسألنا عن سلمى؟».

فوقف الناسك على قدميه، وصاح: ماذا فعلوا؟.. لا.. لم يقتلوها..»..

فقال عبد الرحمن: «صدقت، انهم لم يقتلوها بالسيف.. ولكنهم قتلوها بالعسل».

فأطرق الشيخ الناسك ويده على لحيته وهو ينتفض ويرتعد، وقال: «ومن أخبركم بذلك؟» فقص عليه عامر ما كان من أمرها فقال الناسك: «ان الله لا ينصر القوم الظالمين».

فقال عبد الرحمن: «ارشدنا يا شيخنا.. اننا لا نرى سبيلا الى الحياة بغير الانتقام».. فبهت الشيخ هنيهة، ثم قعد وهو يقول: «اخرجا من هذه البلاد.. لم يبق لكما فيها مأرب».

قال عبدالرحمن: «كيف نخرج منها، وقد دفنوا سلمى فيها؟».

قال : «اخرجا الى شركائكما فى الثأر .. اخرجا الى مكة فإن فيها ابن بنت الرسول ، وهو المطالب بالخلافة ، وهى حق له وحده، اذهبا اليه وانصراه فإذا فاز بها يتم لكما الانتقام . إن البقاء هنا لا يجديكما نفعا ، والأمر أعظم مما تظنان» .

ثم قال الشيخ : « لا أزيدكما علما بأن يزيد هذا لما مات ابوه، وقام يدعو الناس الى بيعته كان الحسين معه فى المدينة ، وغيره من أبناء الصحابة وفى جملتهم عبدالله بن الزبير بن العوام. وكان نائب يزيد على المدينة يومئذ الوليد بن عقبة بن أبى سفيان ابن عمه فكتب الى الوليد يخبره بموت معاوية ، ويطلب إليه ان يأخذ البيعة من الحسين وعبدالله بن الزبير. فوصله الكتاب وعنده مروان بن الحكم، فاستشاره فى الأمر فقال مروان . أرى ان تدعوهما الساعة وتأمرهما بالبيعة.. فبعث اليهما وكانا فى المسجد .. فلما وصل الرسول اليهما واخبرهما بطلب الوليد قالا :

«انصرف الآن وسوف نأتيه». وقال ابن الزبير للحسين: «ترى لماذا بعث الينا فى هذه الساعة». قال الحسين : «أظن طاغيتهم قد هلك ، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يشيع بين الناس الخبر». فقال ابن الزبير: «وأنا لست أظن غير هذا ، فماذا تريد أن تصنع؟» قال الحسين : «اجمع فتيانى الساعة ثم امشى اليه واجلسهم على الباب وادخل عليه». قال عبدالله : «انى أخاف عليك اذا دخلت» .. ثم قام وجمع اليه اصحابه وأهل بيته حتى أقبل على باب الوليد ، وقال لأصحابه : «انى داخل فإذا دعوتكم او سمعتم صوتى قد علا فادخلوا على جميعا ، والا فلا تبرحوا حتى أخرج اليكم » . ثم دخل الحسين على الوليد فسلم ومروان عنده . فقال الحسين: «الصلة خير من القطيعة ، والصلح خير من الفساد ، وقد آن لكما ان تجتمعا . اصلح

الله ذات بينكما» .

وجلس .. فأقرأه الوليد الكتاب ونعى له معاوية ودعاه الى بيعة يزيد، فاسترجع الحسين وترحم على معاوية ، وقال : «أما البيعة فان مثلى لا يبايع سرا ، فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحدا» ، فقال له الوليد وكان يحب المسالمة: «انصرف» فقال مروان للوليد : «اذا فارقك الساعة ولم يبايع ما قدرت منه على مثلها ابدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبسه فإما بايع والا ضربت عنقه؟» .. فوثب عند ذلك الحسين وقال: «يا بن الزرقاء أأنت تقتلنى أم هو؟ كذبت والله» ثم خرج الحسين وتوجه على الفور الى منزله . فقال مروان للوليد: «عصيتنى .. والله لا يمكنك من نفسه بمثلها ابدا» . فقال الوليد : «والله يا مروان ما أحب ان يكون لى ما طلعت عنه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وان أقتل حسينا ان قال لا ابايع ، والله انى لا أظن امرءا يحاسب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة» . قال مروان: «قد أصبت» قال هذه وهو غير حامد له رأيه .

وأما الزبير ، فلما أتاه رسول الوليد قال : «الآن آتيكم» .

ثم أتى داره فتحصن فيها، ولما بعث اليه الوليد وجده قد جمع أصحابه واحترز ، فألح عليه الوليد وهو يقول : «أمهلونى» . فبعث اليه الوليد مواليه فشتموه وقالوا له : «يا ابن الكاهلية لتأتين الأمير او ليقتلنك» فقال لهم «والله لقد استربت لكثرة الارسال، فلا تتعجلونى حتى أبعث الى الأمير من يأتينى برأيه» .. فبعث اليه أخاه جعفر بن الزبير . فقال جعفر للوليد : «رحمك الله .. كف عن عبد الله فإنك قد افزعته وذعرته ، وهو يأتيك غدا إن شاء الله تعالى .. فمر رسلك لينصرفوا عنه» . فبعث الوليد اليهم فانصرفوا، وخرج ابن الزبير من

ليلته ، فأخذ طريقه الى مكة .. هو وأخوه ليس معهما ثالث . فسرح الوليد الرجال فى طلبه فلم يدركوه ، فرجعوا وتشاغلوا عنه بالحسين ليلتهم . فقال لهم الحسين : «أصبحوا ثم ترون ونرى » . فكفوا عنه ، فسار من ليلته، وأخذ معه بنيه وأخوته وبنى أخيه وجل أهل بيته . وكان ذلك بعد ليلة من خروج ابن الزبير» .

واستطرد الشيخ : «وقبل ان يخرج الحسين من المدينة ، أشار عليه أخوه محمد ابن الحنفية أن يدعو الناس إلى بيعته ، ويصبر على ذلك . فلما أتى مكة تقاطر إليه الناس ليبايعوه ، ولكن بعض الناس اشاروا عليه أن يقدم الى الكوفة ويستنصر اهلها . وأشار عليه آخرون بالبقاء فى مكة يستظل بالحرم ، لأن أهل الكوفة لم يفلحوا فى نصرة أبيه من قبله وأظنه بعث ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليرى رأى أهلها فى قدومه اليهم . فاذا تمت له بيعتهم فسيبايعه اهل العراق والحجاز فيتم له الأمر ويفشل يزيد ، وفى فشله انتقام كاف لكما.. فاذهبا الى مكة وانصرا الحسين ، إنه أولى الناس بهذا الأمر. وحثا الناس على نصرته وعلى خلع يزيد والله ينصركم أجمعين » .

فلما سمعا قوله استحسناه ، ونهضا للحال فودعاه .. فبكى لوداعهما وقبل رأسيهما وأوصاهما بسرعة الخروج من الشام لئلا يعلم بهما يزيد أو أحد رجاله .

تشرب السم

أما دمشق فكانت لا تزال تعيش قصة سلمى ويزيد وكان يزيد قد أمر بتجريعها العسل .

وكانت سلمى بعد خروج عبيد الله بن زياد قد أيقنت بفشلها، وتحققت من وقوعها فى الشرك .. ولكنها اصبحت لا تبالى بالحياة بعد ما سمعته عن مقتل عبد الرحمن . على أنها كانت تود ان تنتقم

له قبل موتها . وراجعت ما مر بها من الأهوال فى تلك الليلة، فرأت أنها لو استطاعت ان تكتم نوازع نفسها .وأطاعت يزيد واستسلمت له فيما التمسه منها من لعن على لتمكنت من الفتك به ، ولكنها رأت تلك المداهنة فوق طاقتها .. فلم تندم على كلمة قالتها وفيما هى تردد تلك التصورات فى ذهنها ، دخلت العجوز واستأذنتها فى اصطحابها الى المقصورة.. فأطاعتها وهى لا تبالى بما هناك من الموت او الحياة . فمشت فى أثرها حتى صعدتا الى المقصورة، فدخلت سلمى وظلت العجوز بالباب .

وجلست سلمى على الفراش ، ونظرت الى ما بين يديها من آنية الخمر والشموع والفاكهة .. وتذكرت جلوس يزيد الى جانبها وما دار بينه وبينها من الحديث ، وكيف انها كادت تبلغ غايتها منه، ثم تذكرت حبيبها مقتولا يتخبط فى دمه ، فاقشعر بدنها ..

وفيما هى فى ذلك ، سمعت وقع اقدام على السلم ، فخفق قلبها .. واذا برجل دخل المقصورة وعليه العباءة والعمامة وفى يده قدح فلما رأته أطرقت وظلت صامتة . فدنا الحكيم منها ، وقدم لها القدح وهو يقول .. اشربى هذا العسل بأمر أمير المؤمنين فإنه قد ينعشك .

فأدركت أنه مسموم فتناولته ويدها ترتعش ، وقالت : «سأشربه وانا اعلم أنه سم قاتل .. فلا تطمئنى ، بل قل لى اشربى هذا السم» .

قال : « كيف عرفت أنه سم ، وأنا اقول لك انه عسل ؟ » .

قالت : «أنا أعلم أنه سم .. وارجو ان يكون كذلك . لأنه إذا أماتنى أراحنى من هذه الحياة .. فقل انه سم ليطمئن بالى، واعلم انى لاحقة بحبيبى على عجل» . قالت ذلك وخنقها العبرات فتأثر الحكيم لكلامها، ولكنه تعود ألا يكون حساسا ، فتظاهر بالاستخفاف وقال : «اشربيه مهما يكن من أمره ، إذ لابد من شربه» .

فرفعت يدها وهى ممسكة بالقدح ، وقالت : «إنى اشرب هذا السم باسم الله ، وأرجو ان يلحقنى بالامام على وان يقربنى من ابى وابن عمى» ، ثم نظرت الى القدح ، وقالت : «انى اشربك باسم الحق والعدل ، واطلب من الله ان ينتقم لى ولأبى ولابن عمى من هذا الرجل الظالم وادنت القدح من فمها ونظرت الى ما حولها كأنها تودع الدنيا وما عليها» .

فادنت القدح من فمها ونظرت الى ما فيه ثم التفتت الى الحكيم .. وقالت اخشى ان يكون السم قليلا لا يكفى لقتلى فأتعذب .. فاذا كان قليلا أضف اليه سما آخر» .

فقال الحكيم بهدوء: «اشربى يا بنية ولا تطيلى الكلام» .

فقالت : «إنى اشربها ولا اخاف منها ، لأنها ترياق لمصابى» ..

ثم ادنت القدح من فمها وهى تقول : «اشرب هذا الكأس باسم الله» .. وشربتها جرعة واحدة ، واستلقت على الفراش وهى تتلو الفاتحة وتردد اسم عبدالرحمن .

ولم تمض برهة حتى غابت عن الدنيا وشفتاها تتحركان ، كأنها تخاطب عالم الارواح وقد امتقع لونها وبردت اطرافها.. فخرج الحكيم واغلق الباب ونزل فظل سائرا الى غرفة عبيدالله بن زياد ، وكان فى انتظاره فدخل عليه واغلق الباب وراءه ، فقال له ابن زياد : «ماذا فعلت» ؟

قال : «لقد سقيتها العسل» ..

قال عبيد الله وهل فعلت ما وعدتنى به ؟

فضحك وقال : «وما الذى وعدتك به» .

قال عبيد الله : «ألم أطلب اليك أن تبدل السم بالبنج وجعلت لك مكافأة على هذا الجميل ؟»

قال وهو يضع يده على كتف عبيد الله : «نعم انى وعدتك بذلك ، وهكذا فعلت .. فالفتاة لم تمت ولكنها نائمة ، اليك هذا الدواء العقار ، اذا سقيتها اياه افاقت. واحذر ان يعلم أميرالمؤمنين بما اتفقنا عليه» .

قال: «لا تخف من ذلك لأنى سأخبر الخليفة بموتها . وارسل من يحفر قبرها ثم ابعثها إلى مكان خارج المدينة وهى نائمة كأنها محمولة الى القبر ومتى افاقت ابقيتها خارج دمشق حتى أسير إليها فأحملها معى ولا يعلم بها احد سواى» .

فشكره الحكيم ، وانصرف .

وكان عبيد الله بعد أن أمر يزيد بقتل سلمى قد خلا بالحكيم واسترضاه بالمال الكثير على أن يضع البنج بدلا من السم ، حتى اذا احتال فى إخراجها من القصر الى القبر ذهب بها الى مكان منفرد يقيم فيه واسترضاها لعلها تقبله زوجا لها ، فلما اخبره الحكيم بما فعله ، سار توا الى يزيد وانبأه بموتها ، فقال له : «ابعث من يدفنها قبل طلوع النهار» ، فأمر اثنين من رجاله ان يكفناها ، وبعث اخرين لحفر القبر ، واوصى الأولين ان يحملاها الى مكان منفرد خارج المدينة حالا ، وتظاهر بأنه ارسلها الى المقبرة .

وعاد اللذان حفرا القبر قبل الفجر مذعورين لما رأياه من خروج عامر وعبد الرحمن ، وهما يحسبانهما عفريتين ، فقصا الخبر على عبيد الله فأمرهما ان يقصاه على الخليفة لعل ذلك يفيده اذا علم الخليفة إنها حية فيما بعد ففعلا ..

المسلمون فى الكوفة

وفى صباح اليوم التالى ، ابطأ يزيد فى الخروج الى المجلس لأنه قضى ليلته الماضية ساهرا ، فنام فى الصباح ولم يستيقظ الا عند الظهر فجاء الى المجلس وعبيد الله غائب ، ولم يكد يستقر فى الجلوس حتى

دخل عليه الحاجب وهو يقول : «إن بالباب رسولا من الكوفة» .

قال : «فليدخل» .

فدخل رجل عليه مظاهر السفر ، وبيده كتاب ، فسلم ودفع الكتاب الى يزيد فتناوله فاذا هو من عبدالله بن مسلم احد اتباع بنى أمية فى الكوفة فقرأه واذا فيه : «الى امير المؤمنين يزيد بن معاوية من عبدالله بن مسلم ، اما بعد : اعلم يا أمير المؤمنين ان الناس فى الكوفة والبصرة قد ضعف امرهم بضعف اميرهم النعمان بن بشير .. فقد وليته الكوفة وهو رجل ضعيف أو هو يتضاعف حتى كاد الأمر أن يفضى إلى أعدائنا ، فإذا كان لك حاجة فى الكوفة .. فأرسل اليها رجلا قويا ينفذ امرك وتفصيل الخبر ان اهل الكوفة لما بلغتهم وفاة معاوية رحمه الله وامتناع الحسين وعبدالله بن الزبير عن البيعة ثاروا على امير المؤمنين واجتمعت شيعة على فى منزل احد كبارهم وارسلوا خطابا الى الحسين فى مكة وكتبوا اليه كتابا قالوا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم .. سلام ، فإننا نحمد الله الذى لا إله الا هو .. أما بعد فالحمد لله الذى اسقط عدوك الجبار العنيد الذى اجترأ على هذه الأمة ، فابتزها وغصبها وتآمر عليها ثم قتل خيارها واستبقى أشرارها .

فأقبل لعل الله ان يجمعنا بك على الحق ..والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وارسلوا هذا الكتاب الى الحسين فى مكة ، فجاءهم من الحسين كتاب قال فيه :

أما بعد فقد فهمت ما قصصتم وقد بعثت اليكم بأخى وابن عمى مسلم بن عقيل وأمرته ان يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب الى انه اجتمع رأى غالبيتكم على مثل ما قدمت به رسالتكم أقدم اليكم قريبا ان شاء الله .

وقد حدث مثل ذلك يا أمير المؤمنين فى البصرة ايضا. اما الحسين فانه ارسل الى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل ، وأمره اذا رأى الناس مجتمعين على بيعته ان يعجل اليه ويخبره بذلك .

وقد جاء مسلم الى الكوفة بعد أن قاسى فى طريقه عذابا عظيما من العطش ونحوه ، ونزل فى دار من دور اتباع الحسين ، وصارت الناس تذهب اليه وهو يقرأ عليهم كتب الحسين فيبكون ويعدونه بالقتال والنصرة.

كتبت هذا ليكون أمير المؤمنين على بصيرة ويعلم أن ابن بشير لا يصلح لهذا الأمر ، فأرسل الينا من يعمل مثل عملك والسلام» .

عبيد الله على الكوفة

فلما قرأ يزيد الكتاب، تغيرت حاله وتشاءم بما ارتكبه بالامس وخيل له أنه أذنب بقتل سلمى وهى فتاة وندم على فعله، وأراد صرف مجلسه ليخلو ببعض خاصته ، فقال : «على بركة الله» . فعلم أعضاء المجلس انه يريد صرفهم . فانصرفوا ثم بعث الى سرجون، وهو رجل رومى ذو دهاء وحكمة ، كان معاوية يعتمد عليه فى شئونه ويستشيره فى أموره حتى جعله كاتبه فلما مات معاوية ظل يزيد على ثقته فى سرجون فاستقدمه وخلا به واطلعه على الكتاب، فأطرق هنيهة ثم قال : «أرأيت لو أن معاوية على قيد الحياة فهل كنت تأخذ برأيه ، قال : «نعم »

فمد سرجون يده الى جيبه واخرج كتابا وقال : «خذ هذا فأخذه يزيد وقرأه فاذا هو عهد لعبيد الله بن زياد يوليه به الكوفة»..

فاستحسن يزيد الرأى وعول على ان يولى ابن زياد الكوفة والبصرة. وأمر الحاجب أن يستدعى ابن زياد فلما جاء ودخل وسلم دفع يزيد كتاب عبد الله ابن مسلم اليه، ولم يقل شيئا .

فتناول ابن زياد الكتاب وقرأه حتى أتى على آخره .

وقال : «إنى صنيعة امير المؤمنين ، ويده التى يحارب بها اعداءه» .

فقال له : سر الى الكوفة ، وامنع اولئك الناس منها، وكن لى كما كان ابوك لأبى» .

فقال : «سمعا وطاعة وقد سره ذلك لانه سيخرج من دمشق سريعا فيخلو له الجو مع سلمى ، ولا رقيب عليهما .. وكان قد بعث سلمى سرا قبل الفجر الى بيت منفرد فى اطراف الغوطة، ثم سار هو فى الصباح اليها وسقاها العقار الذى أعطاه اياه الحكيم، وانزوى فى بعض اطراف الغوطة . فلما افاقت ورأت النور، وهى لا تزال فى غمرة السكر ، ظلت برهة مبهوتة لا تدرى ماذا تقول ، وعبيد الله لا يخاطبها وفى اعتقاده انها اذا افاقت ورأت نفسها حية اعترفت له بالجميل . فلما افاقت تبادر الى ذهنها — لأول وهلة — انها بعثت من الموت وانها فى العالم الآخر ، فصاحت : «أين عبد الرحمن ؟ أين هو أرونى إياه .. هل انا فى النعيم ؟» .

فضحك عبيد الله ..

فلما سمعت ضحكته ، التفتت اليه وهى تفرك عينيها بأناملها، ولما رأته صاحت : «أنت هنا يا لئيم ! .. إنى إذن فى الجحيم .. اذهب من امام عينى» .

فدنا عبيد الله منها وامسك بيدها، وقال : «أنت فى هذه الدنيا ياحبيبتى وقد استبقيتك شفقة عليك» .

فجذبت يدها من يده ، وصاحت : «إننى لا أريد الحياة إلا اذا كان عبد الرحمن فيها .. اقتلنى .. قتلك الله .. أشفق على واقتلنى» ..

فعذرها وقال لها : «إنى لا أعاملك بما تستحقينه لأنك جاهلة ، وسأصبر عليك وأنت أسيرة بين يدى لا ينجيك من غضبى غير الرضا

فامكثى هنا حتى ترجعى الى رشدك او تموتى ، قال ذلك وتركها وحدها، وأمر الرجلين ان يقوما بحراستها ريثما يعود ..

فلما رجع الى دمشق ، ووجد ان يزيدا قد ولاه الكوفة والبصرة استبشر بتحقيق أمنيته .

خرائب تدمر

قضى عبيد الله بضعة أيام وهو يتأهب للمسير ، وأعوانه يهيئون الاحمال خارج دمشق .. وفى جملتها هودج حمل سلمى فيه على جملين واقام عليها خادميه حارسين يقدمان لها الطعام والماء . وكانت فى بادىء الأمر لا تقبل طعاما ولا شرابا التماسا للموت جوعا وعطشا حتى نحل جسمها وامتقع لونها وضعفت قوتها ، ولكن الحياة عزيزة لا يتعمد المرء خسرانها فلما مضى على سلمى يومان بغير طعام او شراب ، ورأت الموت لايتهيأ لها على هذا السبيل الا بعد العذاب الطويل ، عادت الى الفطرة البشرية ، فالتمست البقاء لتسعى الى الانتقام من سبيل آخر لا خطر فيه على حياتها . وقد علمت انهم سائرون بها الى الكوفة وان الحسين سائر اليها ايضا ، وان الناس فى الكوفة على دعوته .

ورغبت فى أن تحيا حتى تنتقم لوالدها وخطيبها .. فجعلت تتناول من الطعام والشراب ما تسد به رمقها وكان عبيد الله ، على طول الطريق، يتردد على سلمى ، تارة يستعطفها ، وطورا يهددها ، وآونه يمنيها، وأخرى يخوفها ، وهى ترفض رفضا باتا . وكثيرا ما كانت تسمعه كلاما مؤلما وهى تعلم ان الجفاء لا يجديها نفعا، ولكنها لم تكن تستطيع التغلب على أنفتها .

قضت فى مثل ذلك خمسة أيام ، والركب سائر فى الصحراء نحو الشرق والشمال وفى صباح اليوم الخامس رأت بقعة من الأرض مساحتها بضعة أميال قد غطتها ابنية خربة، وفيها الجدران العالية المبانى

الشامخة والأسوار الغليظة بين متهدم ومتداع ، على أن حجارتها كانت تنطق عما كان هنالك من العظمة فى قديم الزمان. تلك هى خرائب تدمر الذائعة الصيت .. تدمر العظيمة التى ازدهرت فى اوائل النصرانية ، وقد كانت واسطة عقد التجارة بين العراق والشام حتى اذا تداعت الى الخراب جعلوها موقفا للقوافل فى اثناء الطريق بين هذين البلدين.

عمرت تدمر فى اوائل القرن الثانى للميلاد على أثر سقوط دولة الانباط فى شمالى جزيرة العرب وغربيها فاستولى عليها الرومان سنة ١٣٠ م فازدهرت واتسعت تجارتها، وكانت مع ذلك مستقلة بشرائعها واحكامها يتولى النظر فى شئونها مشيخة من أهلها.. ومد الرومان بينها وبين دمشق طريقا تسير فيه المركبات. وعليها كل اصناف التجارة.

اشتهرت تدمر فى اواسط القرن الثالث للميلاد بالملكة زنوبيا فطمع فيها الرومان فى الغرب والفرس فى الشرق ، وقامت حرب بينهما ظلت حتى تغلب الرومان فملكوها ، ولكنها لم تدم لهم ولا لغيرهم.. فلم تمر بها أجيال حتى اصبحت فى زوايا الاهمال ، وتحولت قصورها الى خرائب، وصارت هياكلها جحورا للثعالب والثعابين .

ولو عقل ابن زياد يوم اشرف على تلك الخرائب ، وعرف تاريخ تلك الآثار ، لعلم مصير الانسان ، وانه لا يبقى من مجده الا ما كسبت يداه من خير او احسان.

الفتك

وقفت القافلة تستريح فدخل ابن زياد خيمة سلمى فلما رأته، بدا لها ان الشر يضطرم على وجهه ، فاستعاذت بالله ، وكأنه ادرك خوفها ، فتلطف فى سؤالها عن حالها، فلم تجب . فقال لها : «قومى يا سلمى واتركى الخيمة ، وادخلى هذا القصر وتأملى صنعه».

فأدركت انها اذا امتنعت ساقها بالعنف فطاوعته ، ومشت حتى دخلت الهيكل ، فأعجبت بما رأته من سعته وارتفاع جدرانه .

فلما رأت نفسها فى تلك الخربة الهائلة مع ابن زياد وليس معهما ثالث ارتعدت فرائصها توقعت وقوع الخطر . وكان الضعف قد تمكن منها ، فاصطكت ركبتاها وعجزت عن المسير فأدرك عبيد الله حالها، فعمد الى الرفق بها فجلس الى جانبها وهو يحاول ألا يلمسها وقال لها : «اتعلمين يا سلمى انك وحيدة فى هذا المكان وان حياتك بيدى. وأنى سأنال منك ما اريد ولو بلغ صراخك عنان السماء، فما ضرك لو أطعتنى فتكونين زوجتى .. وأنت تعلمين أنى يد أمير المؤمنين، وقد ولانى الكوفة والبصرة فإذا أطعتنى كنت سيدة نساء الكوفة ، واذا شق عليك لعن ابى تراب فلا أكلفك لعنه . وإنما اطلب اليك ان توافقى على أن تكونى زوجة لى، وتعيشين معى فى نعيم تتمناه كثيرات من أمثالك» .

فظلت سلمى ساكتة.

فقال لها : «أراك ساكتة ، فهل سكوتك هذه المرة مثل سكوتك بالامس فى دار الخليفة ، ام هو دليل على رجوعك الى الصواب ؟ .. ويكفينى برهانا على ذلك ان تعطينى يدك فأقبلها» ، قال ذلك ومد يده إليها فلما دنت يده، دفعته وصاحت: «خف من الله يا ابن زياد ، واشفق على ضعفى» ..

فقال لها : «لقد صبرت كثيرا ، لم يبق مكان للصبر عندى .. فاعلمى انك الآن تقفين بين الحياة والموت. فاذا أطعتنى عشت سعيدة مكرمة معززة ، والا فإنى أصلبك ثم أطعنك بهذا الخنجر، واتركك طعاما لطيور السماء» .

فعظم الأمر على سلمى وغلب عليها اليأس، وأيقنت بدنو أجلها فبسطت كفيها الى السماء ، وصاحت بأعلى صوتها: «إنى استجير بك يارب العالمين يانصير المظلومين اشفق اللهم على فتاة لا ذنب لها إلا الانتصار لنبيك والغيرة على أهل بيته.

كلب الناسك

وكانت سلمى تتكلم والصدى يدوى فى تلك الخرائب ، وهم ابن زياد ان ينتهرها . .فاذا بكلب ينبح بين خرائب تلك القصور ونباحه يقترب نحوهما . ولم تمض برهة حتى دنا الكلب واذا هو اسود كبير. فلما رآته سلمى علمت أنه كلب الناسك. فاستغربت وجوده فى تلك الخرائب ولم يكن عبيد الله اقل استغرابا منها . اما الكلب فوثب على عبيد الله وهو ينبح نباحا شديدا فأستانست به وخيل لها انه جاءها بالفرج القريب ..

أما عبيد الله ، فلما رأى الكلب قد وثب عليه استل خنجره وطعنه فى ظهره فعوى الكلب عواء شديدا من شدة الألم ، وانثنى مسرعا حتى خرج من الهيكل والتفت عبيد الله الى سلمى، وقال: «كأنى بك استأنست بهذا الكلب ، وحسبته فرجا جاءك من ربك .. فها قد قتلناه، واذا بقيت على عنادك الحقناك به» . فقالت: «أغمد خنجرك فى صدرى ، وارحنى من رؤيتك» . قال: «سأفعل ذلك بعد ان اتركك ساعة وحدك تراجعين فيها نفسك» . قال ذلك وحل عمامته وربط بها اكتافها من الوراء واوثقها بعمود وتناول نقابها وقيد به رجليها وتركها مصلوبة مكشوفة الوجه ، وخرج وهو يقول : «سأعود اليك بعد ساعة ، فاذا بقيت على وقاحتك اغمدت خنجرى فى صدرك وتركتك طعاما للغربان . واذا رجعت عن غيك سرت بك مكرمة الى الكوفة» .

خرج عبيد الله وغادرها مصلوبة تئن من ضغط الوثاق ، وودت لو انه اسرع بقتلها لتنجو من ذلك العذاب ، ثم تذكرت الكلب وشق عليها موته فى سبيلها.

الفرج القريب

واذا بها تسمع خربشة وأنينا ، ثم رأت الكلب يسرع اليها وقد جمد الدم على جرحه وقد فتح فاه وأخرج لسانه وهو يلهث من

التعب.. فنادته سلمى فدنا منها ثم القى نفسه بين رجليها وقد أخذ منه التعب مأخذا عظيما ، وهو يئن انين النزع ..

ولم تكد سملى تتأمله حتى رأت الشيخ الناسك بين يديها، وهو يحل وثاقها فبغتت لرؤيته ولم تفه بكلمة .. وكانت حركاته تشير اليها ان تسكت فلما حل الوثاق اومأ إليها ان تسرع أمامه فأسرعت، ثم حمل كلبه على ذراعيه وسار حتى سبقها .. فسارت فى أثره، وكان الشيخ يسير ثم ينثر التراب على آثار الدم فى الطريق حتى لا يستدل بها احد الى مكانه وبعد مسير نصف ساعة بين الأحجار والعمدان ، وصلا الى باب ضيق انحدرا فيه على درجات غير منتظمة ، والكلب على ذراعى الشيخ. وقبل الدخول ، عمد الشيخ الى حجر سد به الباب حتى لا يشك من يراه فى انه خال مهجور .. ثم دخلا حتى اختفيا عن العيون ، ووصلا إلى مصطبة تحت الأرض . فجلس الناسك وأجلسها ، ووضع الكلب بين يديه على المصطبة ، وأخذ فى البكاء والنحيب وهو يخاطبه .. صحبتك منذ بضعة عشر عاماً وأنت رفيقى وأنيسى . صحبتك بعد أن مللت صحبة الانسان وعرفت شرور ابن آدم . ما صحبتك إلا وأنا أعرف فضلك وأرى خيرك . ولكننى لم أتوقع مصيرك الذى صرت إليه . وما حسبت يوما أنك تبلغ الموت قبلى..» ، قال ذلك وهو ينظر إلى كلبه ، والكلب يتمطى ويختلج ويجيل عينيه ويعانى عذاب النزع، وسلمى تنظر إليهما ولا تستطيع أن تمسك عن البكاء .

وكان الشيخ يبكى ودموعه تنحدر على لحيته ، ثم رفع الشيخ بصره إلى سلمى ، وقال لها : «لا تعجبى يا بنية لما ترينه من بكائى على حيوان أعجم ، فإنه خير عندى من أولئك الآدميين .. ألا ترينه ذكر صحبتك ومات فى سبيل إنقاذك ؟ .. إنه ذكر صحبة يوم أو يومين فلما اشتم رائحتك بين هذه الخرائب – وكان نائما إلى جانبى – نهض كالليث الكاسر وأسرع إليك، ثم عاد ودمه يفور من جرحه لشدة

الطعنة ، وكأنه أشار إلى أن ألحقه فتبعته . فلما أتيت إليك ورأيتك مربوطة أنقذتك .. والفضل لهذا الحيوان »! ..، فقالت «صدقت، إن صحبة هذا الكلب خير من صحبة كثيرين ، ولكن القضاء نفذ فيه» ..

ثم سكت كلاهما ، والشيخ يمسح دموعه ، ثم قال : «هلم بنا ندفن هذا الصديق الأمين ، قال ذلك ونهض فحفر حفرة ، وكان الكلب قد مات ، فدفناه فيها .

ثم أطرق كأنه يفكر فى أمر هام .. ثم التفت إلى سلمى وقال لها : «وما الذى جاء بك يا سلمى إلى هذه الديار، وقد كنت سمعت بمقتلك ؟ ..» .

فقصت عليه الحديث من أوله إلى آخره ، ثم قالت : «الآن إما أن تقتلنى وتدفننى فى هذه الخرائب ، أو ترشدنى إلى سبيل للانتقام» .

فقال لها : «أتريدين الانتقام ؟ ..» .

قالت : « كيف لا أريده وهو وحده يحبب إلى البقاء ، وإلا فلألحق بحبيبى عاجلا» ..

قال : «إذا كنت تطلبين الانتقام ، فإنك تلقينه فى الكوفة» .

قالت : «لا أبالى أين هو .. فإذا قتلت يزيد وابن زياد ، أو رأيتهما مقتولين ثم مت، فإن ذلك الموت حياة لى» ..

قال : «اعلمى يا بنية أن الحسين أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليدعو الناس إلى بيعته ، فبايعه منهم ثمانية عشر ألفا فإذا جاء الحسين إلى الكوفة وتمت البيعة فيفشل ابن زياد ، فيقتلونه ثم يسيرون إلى الشام فيحاربون يزيد ويقتلونه أيضاً » .

ولم يتم الشيخ كلامه حتى أشرق وجه سلمى من الفرح ، وقالت : «آه ! .. يا حبذا ذلك ! .. ولكن قل لى يا عماه ، هل عرفت ذلك يقينا ؟ ..» .

قال : «انى أقول الذى لا ريب فيه ، فامكثى معى هنا بضعة أيام ريثما ينصرف هؤلاء القوم إلى الكوفة ثم نلحق بهم ، ومتى وصلنا إلى الكوفة أنبئك بما سيكون » ..

أما ابن زياد ، فإنه ترك سلمى مصلوبة وهو لا يشك أنها لا تلبث أن تذعن له وتخاف من بطشه . فلما عاد إلى الهيكل ورأى بقايا الوثاق ولم يرها غاب رشده ، وأخذ يبحث عنها فى الهيكل وخارجه يومين كاملين فحمل أحماله وسار يلتمس الكوفة ، وهو لا يصدق أن سلمى خرجت من يده .

وكان أهل الكوفة قبل وصوله قد لقوا مسلم بن عقيل ، وبايعه منهم جمع غفير وضعف أمر الأمويين . ونزل عبيد الله بن زياد أول ما نزل البصرة ، فحرض أهلها على الطاعة، ثم ذهب إلى الكوفة وقد تشيع معظم أهلها إلى الحسين ، وأصبحوا ينتظرون قدومه ليبايعوه ويولوه أمرهم .. فلما سمعوا أن يزيدا ولى عبيد الله رجوا أن يصل الحسين قبله لتكون الولاية له . أما عبيد الله فقد وصل إلى الكوفة قبل الحسين ، فدخلها وحده وعليه لباس الأمراء ، فكان لا يمر بمجلس أو جماعة إلا ظنوه الحسين فيقولون : «مرحبا بك يا ابن رسول الله » وهو لا يكلمهم . وخرج إليه الناس من دورهم ، فساءه ما رآه من ترحابهم بالحسين . حتى وصل إلى دار الامارة وفيها النعمان بن بشير أميرها السابق ، والنعمان يحسبه الحسين فأغلق الباب من دونه ، وقال: «فوالله ما أنا بمسلم اليك أمانتى» .

فدنا عبيد الله منه وقال له : «افتح» فلما سمع النعمان صوته عرفه وفتح له ، وصعد عبيد الله المنبر وخطب فى الناس ، فقال: «أما بعد ، فإن أمير المؤمنين أمرنى بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم بالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم وبالشدة على عاصيكم .. وأنا متبع

أمره ومنفذ فيكم عهده .. فأنا لمحسنكم كالوالد ، ولمطيعكم كالأخ الشقيق . وسيفى وسوطى على من ترك أمرى وخالف عهدى» ، ثم نزل وجعل يعمل على إرهاب أهل الكوفة وردهم إلى الطاعة بما عرف به من الدهاء . وأهل الكوفة ضعفاء سريعوا التقلب.

كربلاء

أما ما كان من أمر سلمى والشيخ ، فإنهما بعد أن تحققا من مسير ابن زياد من تدمر .. خرجا وسارا يلتمسان الكوفة من طريق غير الذى سار هو فيه ، وكان سيرهما بطيئاً لأنهما ماشيان والطريق وعر وفيه خطر ..

وبعد أيام أشرفا على الكوفة ، وقد تعبا تعباً عظيماً .

فاستراحا يوما وسلمى لا تصبر عن النزول إلى الكوفة ، فلما عزما على ذلك قال الشيخ : «اعلمى يا بنية أنى عاهدت الله ألا أقيم فى المدن ولا أسكن العمار ، فانزلى الكوفة وحدك» .

فعجبت سلمى ، وقالت : «وكيف العمل يا مولاى ، وأين أقيم ؟..»

قال : «أما أنت فاذهبى إلى هذا البيت فى طرف الكوفة .. أنه بيت «طوعة» ، وكانت للأشعث وأعتقها ، ثم تزوجها رجل آخر وولدت منه أولادا اسم أحدهم بلال ، وأظنك تعرفينها ؟.. اذهبى وأقيمى عندها ، وأنا أتردد إليك فى منزلها» .

فقالت : «وأنت ، أين تقيم ؟ ..»

قال : «أما أنا ، فإنى ذاهب إلى سهل صغير فى طرف المدينة وراء الكوفة من جانب الفرات اسمه كربلاء ، فإذا احتجت إلى فإنك تجدينى هناك..»

فمشت سلمى حتى دخلت الكوفة كأنها فتاة من فتياتها . ومرت

فى الأزقة فرأت الناس فى هرج ، وسمعت بعضهم ينادون : «يامنصور أمت» وآخرون يلعنون ابن زياد ، فاستبشرت بنقمة الناس عليه .. ولكنها أحبت استطلاع الخبر .

وبعد قليل ، وصلت إلى دار «طوعة» فرأت المرأة جالسة لدى الباب وحدها ، فحيتها .. فلما عرفتها رحبت بها واستقبلتها .

فقالت لها : «ما بالى أرى أهل الكوفة فى هرج ؟ .. ما الذى أصابهم ؟ .. وما معنى ما سمعته من أقوالهم : يا منصور أمت..؟» .

فأشارت «طوعة» إليها أن تخفض صوتها ثم قالت : «اعلمى يا بنية أن مسلم بن عقيل لما جاء إلى الكوفة نزل فى دار المختار بن أبى عبيد ، وأمير الكوفة يومئذ النعمان بن بشير ، وهو رجل ضعيف . فجعل مسلم يدعو الناس إلى بيعة الحسين ، فلما رأى الأمويون ذلك بعثوا إلى يزيد فى دمشق ، فولى عليهم عبيد الله بن زياد .. وهو داهية مثل أبيه . فلما جاء ابن زياد إلى الكوفة دخلها وحده ، فلم يشك الناس فى أنه الحسين . ثم ما لبثوا أن عرفوه ، فدخل دار الامارة وخطب فى الناس وحرضهم على مقاومة شيعة الحسين .. ولكى يتم له ذلك بعث إلى العرفاء (مشايخ الحارات) ثم جمع وأمرهم أن يكتبوا إليه أسماء من فى أحيائهم من شيعة الحسين ، وشدد فى ذلك حتى هددهم بالصلب والقتل . فلما سمع مسلم بما نواه ابن زياد ، خرج من دار المختار ونزل فى بيت هانئ بن عروة المرادى ، وهو رجل ذو وجاهة» .

ثم قالت طوعة : «فلما جاء مسلم إلى هانئ ، خاف هذا أن يقبله فى داره لما سمعه من تشديد ابن زياد فى طلبه . فقال له مسلم : «أتيتك لتجيرنى وتضيفنى» .. فلم يعد هانئ يستطيع رده فقبله بالرغم منه . فصارت الشيعة تختلف إليه فى دار هانئ ، فبلغ ذلك ابن زياد من بعض الجواسيس ، فأراد أن يحتال فى الدخول على هانئ ليتحقق

من الأمر . ثم مرض هانئ بن عروة ، فبعث ابن زياد إليه أنه قادم لزيارته . فقال بعض الحضور من الشيعة : ها هو الطاغية قادم اليكم ، فاقتلوه وانقذوا المسلمين من شره ..» .

اعترض هانئ بأنه لا يريد أن يقتل أمير الكوفة فى داره . فجاء ابن زياد لزيارته ثم خرج سالما.

وأضافت طوعة : «فأصبح هم ابن زياد أن يقبض على هانئ ويستجوبه .. فبعث إليه أن يأتيه فى قصره ، فاعتذر هانئ بالمرض ، فألح عليه وبعث إليه رجلا استقدمه بالحيلة . فلما وصل هانئ إلى دار الامارة أحس بالشر . ولكنه دخل ووقف بين يدى ابن زياد ، فقال له: «يا هانئ .. ما هذه الأمور التى تحاك فى دارك لأمير المؤمنين ؟ جئت بمسلم بن عقيل ، فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال ، وظننت أن ذلك يخفى علينا ؟» ، فأنكر هانئ فى بادئ الأمر ، وهو لا يظن أمره معلوما عند ابن زياد . فأراه ابن زياد الرجل الذى كان قد جعله جاسوسا عليه .. فتحقق هانئ أنه مطلع على جلية الأمر ، فقال : «أسمع منى وصدقنى ، فوالله لست أقول كذبا .. والله ما دعوت مسلم بن عقيل ولا علمت بشئ من أمره حتى رأيته جالسا على بابى يسألنى النزول عندى ، فاستحييت من رده .. فأدخلته دارى ضيفا ، وقد كان من أمره الذى بلغك . فإن شئت أعطيتك الآن وعدا موثقا تطمئن به ورهينة تكون فى يدك حتى انطلق وأخرج مسلما من دارى وأعود إليك » ، فلم يقنع ابن زياد باخراج مسلم من دار هانئ بل طلب أن يحضره إلى القصر . فقال هانئ : «لا آتيك بضيفى لتقتله أبدا وله على حق الضيافة ! » فتوسط بعض الحضور فى اقناع هانئ بأن يأتيه بمسلم بن عقيل ولا خوف عليه ، فلم يقنع حتى قال : «لا أدفع ضيفى وأنا صحيح شديد الساعد كثير الأعوان .. والله لو كنت واحدا ليس لى ناصر لم أدفعه حتى أموت ..» .

ثم قالت طوعه: «اسمعى يا حبيبتى ما كان من عاقبة تلك الرعاية ، فإن ابن زياد لما سمع كلام هانئ قال : «ادنوه منى» . فأدنوه .. فأعاد التهديد عليه . فلما لم يطعه تناول عبيد الله بن زياد عصى كانت فى يد أحد رجاله ، وراح يضربه حتى كسر أنفه وسالت الدماء على ثيابه. وأراد هانئ أن يدافع عن نفسه ، فمد يده إلى قائم سيف شرطى كان واقفا بجانبه فمنعه منه . وأمر عبيد الله بإلقاء هانئ فى حجرة وأغلق عليه» .

فلطمت سلمى كفا بكف ، وقالت : «وماذا فعل رجاله وأهل عشيرته ؟ ..»

قالت طوعة : «بلغ عشيرته أنه قتل ، فجاءوا وأحاطوا بالقصر وفيه ابن زياد ورجاله ، فخاف ابن زياد منهم وسألهم عما يريدونه ، فقالوا : «إنك قتلت هانئا» . فهان عليه التخلص لأن هانئا كان لا يزال حيا ، فاستشهد بالقاضى «شريحا» وكانوا يعتقدون بصدقه . فقال له عبيد الله : «ادخل على رجال هانئ وأخبرهم أنه حى» .. فدخل وعاد فأخبرهم أنه حى ، فانصرفوا .

فصاحت سلمى : «يا للفشل .. ماذا أصاب الناس؟..» ، فقالت طوعة : «تمهلى يا سلمى أنك ستسمعين ما يسرك ، وذلك أنك سألتنى عن معنى قولهم: « يا منصور أمت» فاعلمى يا بنية أن هذه العبارة هى شعار أنصار الحسين ينادون بها بعضهم بعضا وأما سبب الهرج الذى رأيته ، فإن مسلما بن عقيل لما علم بما أصاب هانئا نهض ونادى رجاله بذلك الشعار حتى أجتمع حوله ثمانية عشر ألفا من كندة ومذحج وأسد وتميم وهمذان وأهل المدينة ، ولكل عشيرة من هؤلاء ربع . فعقد على كل ربع قائد ، وساروا فى هذا الصباح وأحاطوا بالقصر ، وليس مع ابن زياد فى القصر إلا ثلاثون رجلا ، وهو الآن فى ضنك شديد .. ولا أظن مسلما إلا فائزا» .

فتهلل وجه سلمى ، وبان الاهتمام على وجهها ، وقالت : «يارب يا كريم .. انصر قومك ..» قالت ذلك ونهضت تريد الخروج ، فسألتها طوعة : «إلى أين تذهبين ؟ ..»

قالت : «دعينى أمض وأرى ما سيكون من أمرهم ..»

قالت : «تمهلى واجلسى ، فإنك فتاة لا آمن عليك من الغوغاء» .

الفشل الجديد

وبينما كانت سلمى تحاول الخروج ، سمعتا وقع أقدام بباب الدار . فتغير وجه المرأة وخفق قلبها وليس فى بيتها رجال ، فأشارت إلى سلمى أن تمكث .. وخرجت هى إلى الباب ، فرأت رجلاً واقفا وقد بدت الفجأة والكآبة على وجهه فسألته عما يريده . فقال : «اسقنى ماء ..» .

فقدمت له كوب ماء فشربها وجلس ..

ثم قال لها : «إنى غريب وليس لى هنا منزل ولا عشيرة ، فهل تسدين إلى جميلا ..»

قالت : «ماذا ؟ .. ومن أنت ؟» .

قال : «أنا مسلم بن عقيل» .

وكانت سلمى واقفة تتسمع ، فلما سمعت قوله اختلج قلبها فى صدرها وأسرعت إلى الباب . فلما وقع بصرها عليه عرفته ، وكانت قد رأته قبل ذلك فى المدينة .. فأرادت أن تستعطف طوعة فى قبوله ، فإذا هى قد سمحت له من تلقاء نفسها أن يدخل .

فدخل وسيفه تحت عباءته وأثر التعب على وجهه . فعرضت عليه عشاء فلم يأكل ..

فوقفت سلمى ، وقد أرسلت نقابها على رأسها وترقرقت الدموع فى عينيها ، وقالت : «ماذا أصابك يا مولاى ؟» .

فتنهد مسلم وكادت العبرات تسبق كلامه ، وقال : «دعينى ولا تسألى، فقد قلت أن لا قوم لى ولا عشيرة فى هذه المدينة ..»

فقالت طوعة : «ولكننى سمعت فى هذا الصباح أنك جمعت ثمانية عشر ألفا وأحطتم بقصر زياد ، وهو ليس عنده إلا ثلاثون رجلا ، فما الذى جرى؟ ..»

قال وهو يصر أسنانه : «لقد تفرقوا عنى» ..

قالت سلمى : «وكيف تفرقوا ؟ .. وما الذى حملهم على هذا وهم كثيرون ؟ ..»

قال : «لا تسألى عن القضاء إذا وقع .. ولكن أهل الكوفة قوم لا يعتمد عليهم ، وقد أخطأنا فى الاعتماد عليهم ، بعد أن سمعنا عمى الامام عليا ، كرم الله وجهه ، يخاطب أهل العراق بقوله : «أخلاقكم دقاق وعهدكم شقاق ودينكم نفاق وماؤكم زعاق .. المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه» ، فقد غرنى ما رأيت من إقبالهم على بيعة الحسين حتى تكاثر عددهم .. فلما دعوتهم فى هذا الصباح ، اجتمعوا وتجندوا حتى قلت : «توليتها يا ابن بنت الرسول» ولكن ابن زياد داهية مثل أبيه ، فلما رأى رجالنا محيطين بقصره ، وقد امتلأ المسجد والسوق بالناس ، وسمع جماعة يسبونه ويسبون أباه ، دعا بعض رجاله وفيهم من أشراف القبائل ، وأمرهم أن يخرجوا إلى الأسواق ويخذلوا الناس بالتهديد والوعيد أو بالوعد والتمنى . وأطمعهم بالمال ونحوه ، فخرجوا يخذلون الناس . وأمر آخرين أن يشرفوا من نوافذ قصره علينا ، ويؤملوا أهل الطاعة ويخوفوا أهل المعصية ، فأشرفوا علينا وجعلوا ينادون بالأمان لمن أطاع وبالشر لمن عصا . فما شعرت إلا وقد بدأ الناس يتفرقون عنى حتى لم يبق معى منهم إلا ثلاثون رجلا ، فدخلنا المسجد .. ثم رأيت فى البقاء هناك خطرا على حياتى فهربت على غير هدى لا أدرى إلى أين أسير حتى وصلت إلى هذه الدار . وأنا لا أبالى الآن أأموت أم أحيا ، ولكننى أخاف على ابن عمى الحسين لأنى كتبت إليه بالحضور وأظنه قادما ، وهو يحسب أهل الكوفة جميعهم على دعوته»

ثم تنهد وقال : «والله إن عبد الله بن مطيع قد نصح لنا ألا نقرب الكوفة ، وقال للحسين : «فإذا أتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة ، فإنها بلدة مشئومة فيها قتل أبوك وخذل أخوك وأصابته طعنة كادت أن تقضى عليه . الزم الحرم فإنك سيد العرب وأهل الحجاز لا تفارق الحرم – فوالله لئن هلكت لنتفرقن بعدك» فما كان أجدرنا أن نصغى لقوله» .

وفيما هو يتكلم ، دخل شاب فى مقتبل العمر لم تعرفه سلمى ولم يعرفه مسلم .. أما طوعة فأسرعت إلى استقباله وهى تريد أن تخفى أمر مسلم عنه ، وكان ذلك الشاب ابنها بلال .. فلم يسكت عنها حتى أخبرته بخبر مسلم ، وطلبت إليه أن يكتم أمره ، فسكت .. ولكنه أضمر السوء . وبات تلك الليلة ومسلم هناك .

وأما سلمى فإنها باتت منقبضة النفس وأيقنت بالفشل .. ففكرت فيما ينبغى أن تفعله ، فعزمت على أن تسعى أولا فى سلامة الحسين بأن تسير لتلقاه فى الطريق ، وتقص عليه الخبر ، وترجعه عن الكوفة .

ولما أصبح الصباح ، أفاقت طوعة ولم تجد ابنها ، فظنته خرج لعمله . وأفاق مسلم فجاءته سلمى ، وعرضت عليه أن تسير هى بنفسها لإبلاغ الحسين الخبر ، فأعجب بحميتها، وقال لها : «والله لو أن فى رجالنا عشرة مثلك ما أصابنا ما أصابنا .. بورك فيك يا بنية إننا إذا احتجنا إلى إرسالك أرسلناك . ولكننى لا أرى فائدة من بقائى هنا ، فسأذهب بنفسى ..»

ولم تمض برهة ، حتى سمعوا وقع حوافر حول الدار وعلت الضوضاء .. فأجفل مسلم وامتقع لونه ، فلما رأت سلمى ذلك فيه خرجت تنظر ما الخبر ، فرأت فرسانا ومشاة يزيد عددهم على السبعين ، وفى مقدمتهم شاب شاك السلاح وعليه الدرع ، فعلمت أنه زعيم القوم . فلما استقبلتهم ، صاح فيها الفارس قائلاً : «أين مسلم ؟ .. فليخرج إلينا الساعة ..» .

فقالت : «وماذا تريدون منه ؟ ..»

فلما سمع صوت الرجل يناديه جرد سيفه وهجم عليه، وقال : «ما بالكم ؟.. ماذا تريدون ؟..» .

فصاح فيه الفارس : «تعال معنا إلى الأمير ..» .

فقال : «خسئتم أنتم وأميركم» وهجم عليه بسيفه حتى أخرجهم من الدار وقتل واحدا منهم ، فتناولت سلمى سيف الرجل المقتول وهجمت ، وهى تفضل الموت بعد ذلك الفشل لكى تلحق بحبيبها ، وكان مسلم بن عقيل ينظر إليها ويعجب بحميتها ، ويقول لها : «أرجعى ياسلمى .. مالك ولهذا الخطر ..» .

أما هى فلم تصغ له ، فضربت ضربتين ، ثم سمعت مسلم ابن عقيل يصيح :

«قتلونى .. قتلهم الله» فالتفتت وإذا بسيف أصاب فمه ، فقطع شفته العليا .. لكنه لم يقتل . فهجم على الضارب فضربه على رأسه ، وسلمى تناضل معه . فلما رأى القوم ذلك أشرفوا على سطح البيت ، وعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار فى القصب ويلقونها عليه .

وكان مسلم قد عجز عن القتال ، فأسند ظهره إلى حائط تلك الدار وقد ضعف، فجاءه سيد القوم وهو محمد بن الأشعث فحمله على بغلة وأمنه على حياته ، فالتفت مسلم إلى سلمى ، فإذا هى لاتزال تكافح والنار قد لعبت فى نقابها .. فأراد أن يخاطبها ، فحملوه وساروا به وهو يفكر فى تلك الفتاة لأنه لم ير مثلها فى حياته ..

مقتل عقيل

ومازالوا سائرين به حتى وصلوا إلى القصر وأوقفوه عند بابه .

فأمر ابن زياد أن يصعدوا بمسلم إلى أعلى القصر ، فضربت عنقه وقتلوه .. ولم يبال ابن زياد بعهده الذى أعطاه لهانىء ولمسلم بعدم قتلهما ولاشك فى أن عمله هذا يدل على قسوة وغدر .

أما سلمى ، فإنها حينما تحققت أن مسلما قد أخفق ، ورأت الدم

فى وجهه تذكرت مقتل حبيبها ، فهاجت عواطفها واستماتت وصارت تحارب بسيفها وتناضل نضال الأبطال . ولولا النار التى أصابتها ولحقت بشعرها لم تكف عن النضال فلما انصرفوا أسرعت «طوعة» إلى سلمى ، فأطفأت النار المشتعلة فى شعرها وثيابها ، وحملتها إلى الفراش وهى فى غيبوبة فرشتها بالماء حتى أفاقت وهى لم تصب بسوء .

ولم يمض النهار حتى سمعت بمقتل مسلم فانحصر قلبها .. وفكرت فى أمرها ، فرأت أن البقاء لايجديها نفعا وتذكرت الشيخ، فهمت بالمسير إليه .

وفى صباح اليوم التالى ، خرجت سلمى من بيت طوعة .. حتى أطلت على سهل مقفر لا شجر فيه ولا عشب ولا ماء، فعلمت أنه سهل كربلاء . ورأت فى أحد أطرافه شجرة قد تقادم عهدها وتحتها شبح نائم ، فعلمت أنه الشيخ الناسك . ولم تصل إليه حتى جلس — وقد شعر بقدومها عن بعد — كأنه أشتم رائحتها . أما هى ، فقد غلبها البكاء لفرط ماهاج فى خاطرها من مصير مسلم وحزبه فلما رآها الشيخ ، صاح فيها وناداها إليه قائلا :

«أراك باكية ، كأنى بهم فتكوا بابن عقيل ؟»

فأجابته وقد خنقتها العبرات : «نعم إنهم قتلوه يامولاى شر قتلة . وقد فازوا بالحكم وخابت مساعينا » .

فابتدرها قائلا : «قتلوا ابن عم الحسين ؟.. وكيف قتلوه ؟ .. أعوذ بالله من ظلم الإنسان. فأخبرينى كيف قتلوه ؟» .

فجلست على حجر بالقرب منه ، وقصت الحديث ، حتى إذا أتت على آخر كلامها انخرطت فى البكاء وجعلت تندب حال المسلمين وحال ابن عمها.

فلما سمعها تندب ابن عمها ، وهو يعلم ببقائه حيا ، أشفق على عواطفها ، وقد علم من سياق حديثها أنها راغبة فى الذهاب إلى

الحسين لإطلاعه على جلية الخبر لعلها ترجعه عن عزمه . والشيخ يرجح أن عبدالرحمن وعامرا مع الحسين ، فأراد أن يطمئنها .. فسألها : «وماذا اعتزمت ياسلمى ؟» .

قالت : أريد أن أذهب لألقى الحسين قبل وصوله إلى الكوفة ، وأخبره بما وقع ، وأنصح له أن يظل حيث هو ريثما يتم له التأهب للمطالبة بحقه .. فأحارب معه حتى أموت بين يديه ، فأذهب حيث ألاقى عبدالرحمن ووالدى وأرجو أن يكون ذلك فى النعيم ، وإذا قدر الله لنا النصر وفزنا على أولئك الطغاة وقتلناهم ، فأعيش سعيدة لأنى انتقمت لأبى ولابن عمى وللإمام علىّ» .

فضحك الشيخ ، وسلمى تنظر إليه وتعجب من ضحكه، بعد أن قصت عليه خبر الفشل الذى أصابها . فلبثت صامتة فلما فرغ من الضحك قالت له : «هل تخبرنى سبب ضحكك ؟!» .

قال: «لدى أخبار سارة عن عبدالرحمن» .

قالت : «ألم أندبه بين يديك مرارا ؟.. آه يامولاى دعنى من هذه الذكرى ولا تهيج أشجانى .. ودعنى أمضى فى سبيلى فألقى الحسين وأهل بيته ، وأنبئهم بالخطر الذى ينتظرهم هنا» .

قال : «سيرى يابنية — فى حفظ الله — ولكننى أرجو أن تلاقى عبدالرحمن هناك» ..

فصاحت : «ألاقى عبدالرحمن ! وكيف ألاقيه الا إذا بعث فى هذه الحياة الدنيا . ولم نسمع بالبعث إلا فى الآخرة . لا أراك يامولاى إلا ضاحكا منى هازئا بعواطفى» ، فلما شاهد اضطرابها قال: «إن عبدالرحمن حى لم ينله سيف أولئك الأشرار» .

صاحت سلمى : «بالله ياسيدى ، قل لى الصدق .. هل عبدالرحمن حى حقيقة؟، قل لى وأشفق على حياتى .. عبدالرحمن حبيبى .. أين هو ؟» .

فأمسكها الشيخ : «احمدى الله ياسلمي أن عبدالرحمن وعامرا على قيد الحياة وهما مع الحسين، وأظنهما آتيين معه فى طريقه هذه» .

فبهتت واستجمعت رشدها ، فانبسط وجهها وابتسمت ثم عاودها اليأس.

فقال الناسك : «لا تيأسى من نعم الله ، فإن معسكر الحسين يجمعك بعبدالرحمن ، فقد سار إليه مع عامر وأنت فى دمشق وهو يحسبك ميتة كما كنت تحسبينه ميتا» .

الخروج إلى الكوفة

أما الحسين ، فكان قد انتقل من المدينة إلى مكة ، وأرسل ابن عمه مسلما إلى الكوفة . وجاءته رسالة أن معظم أهل الكوفة على بيعته .. فعزم على الخروج إلى الكوفة ، وهو يظن أنه إذا جاءها استتب له الأمر . وكان يستشير أصحابه ، فمنهم من كان يخوفه من الذهاب ، ومنهم من يحثه عليه .. وكان فى جملة المحبذين ، عبدالله بن الزبير بن العوام ، وكان يطمع فى الخلافة لنفسه .

وكان ابن الزبير لايظهر للحسين عزمه ، وإن كان يحثه على البقاء فى مكة إلا أنه كان يريد خروجه منها .

فقال الحسين :

«لقد حدثت نفسى بالسفر إلى الكوفة ، ولقد كتبت إلى شيعتى فيها وأشراف الناس ، واستخرت الله» .

فقال ابن الزبير : «أما والله لو كان لى بها مثل شيعتك لما عدلت عنها» ، ثم خشى أن يتهمه ، فقال: «أما أنك لو أقمت وبايعناك» .

فلما خرج ابن الزبير ، قال الحسين لمن عنده : «إن هذا الرجل ليس شيء فى الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز» . ويظهر من ذلك أن الحسين لم يكن يجهل طمع ابن الزبير .

وممن نصح للحسين ألا يخرج من مكة ابن عم أبيه

عبدالله بن عباس . وكان قد أدرك غرض ابن الزبير ، فنصح للحسين مرارا أن يبقى فلم يطعه .

وقال الحسين : «قد عزمت على المسير إلى الكوفة» .

فخرج الحسين من مكة ومعه نساؤه وأولاده وأبناء عمه . وما زال ينتقل من مكان إلى آخر ، والناس ينضمون إليه ، حتى أتى مكانا اسمه الثعلبية ، وهناك جاءه الخبر بمقتل مسلم بن عقيل ، وبما حل لشيعته ، وخوفوه من المسير إلى الكوفة .

ومع ذلك مضى فى طريقه حتى أشرف على ضواحى الكوفة ، والناس يأتونه فى الطريق ويخوفونه ، فأصر على المسير .. ولكنه أطلق الحرية للذين معه ، فقال لهم : «قد خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب أن ينصرف فلينصرف» .

فتفرقوا عنه يمينا وشمالا وبقى وأصحابه الذين جاءوا معه من مكة ، وفى جملتهم عبدالرحمن وعامر . وكانا من جملة من حرضه على المسير التماسا للانتقام . وكان عبدالرحمن لايستصعب شيئا فى ذلك السبيل ، بعد ما أعتقد فى مقتل سلمى. أما سلمى ، فإنها كانت قد صممت على النهوض لتلقى الحسين ، وباتت ليلتها تحت تلك الشجرة على أن تصبح فى الغد وتسير . ولما أصبحت ، ودعت الشيخ وخرجت . ولم تمش قليلا حتى رأت الغبار يتصاعد من جهة الكوفة ، ثم ظهر من تحته خيول فعلمت أن ابن زياد أرسلهم لملاقاة الحسين . فتظاهرت بالاستسقاء من بعضهم ، وسألت عنهم . فعلمت أن قائدهم عمر بن سعد ، وقد بعثه ابن زياد فى بضعة آلاف لملاقاة الحسين وجنده . فنزل هذا الجند فى القادسية . فخفق قلب سلمى خوفا على الحسين ورجاله ولكنها ظلت سائرة وقلبها طائر أمامها التماسا للقيا حبيبها . حتى وصلت جبلا اسمه ذو جشم ، فوقفت لتطل منه على الطريق وإذا بغبار يتعالى عن نحو ثلاثين فارسا وأربعين راجلا ماعدا

النساء والأطفال فعلمت أن القادمين هم الحسين ورجاله ، ولكنها استقلت عددهم وعجبت لمجيئهم بهذه القلة بعد أن رأت جند الكوفة وكثرتهم . ثم تبادر إلى ذهنها أنها ترى طليعة الجيش وأن البقية آتية . فوقفت جانبا وقلبها يخفق وعيناها شائعتان فى الرجال تتفرس فى وجوههم لعلها ترى عامرا أو عبدالرحمن ، فلم تر أحدا . فترجح عندها أن الذين تراهم ليسوا كل الجند ، فسألت عبدا كان منفردا عن الركب . فقال لها : «أنهم الحسين ورجاله جميعا . فاستغربت ذلك وانقبضت نفسها لما علمته من كثرة جند الأمويين فى القادسية . ثم رأت جماعة أسرعوا فنصبوا خياما فى سفح الجبل . وبعد قليل أقبل فارس حسن اللباس والقيافة جليل القدر يحيط به الرجالة ، وعلى رأسة عمامة وهو فى نحو السابعة والخمسين من عمره ولايزال الجمال ظاهرا فى وجهه مع مافيه من آثار الانقباض . فعلمت أنه الحسين ، فقضت لحظة فى التطلع إليه ، فإذا هو قد ترجل ودخل خيمة وهو صامت كأنه يفكر فى أمر ذى بال .

وسلمى بالباب فى جملة الواقفين وعيناها تتنقل بين الناس ، وتفحصت الرجال ببصرها فلم تجد عامرا ولا عبدالرحمن .. فاضطرب قلبها وارتابت فى كلام الناسك . ثم عادت إلى الخيمة لعلها تجد أحدا منهما فيها فرأت فارسا قادما من جهة الصحراء وعليه لباس الأمراء ، ففتح له الناس طريقا حتى أقبل على الخيمة وترجل ودخل على الحسين ، فلم تعرفه سلمى ولكنها سمعت بعض الناس يتحدثون عنه ويتذمرون من قدومه ثم علمت أنه الحر بن يزيد التميمى ، قدم من القادسية فى ألف فارس لرد الحسين عن الكوفة . فالتفتت سلمى إلى الناحية الثانية من الجبل فرأت الخيل قد ملأت السهل .

ثم دخل الحر على الحسين وقال له : «ما الذى جاء بك إلى هذه البلاد ؟» .

فقال الحسين : «إنى لم آتكم حتى جاءنى خطابكم أن أقدم إليكم»

فقال الحر : «إننا والله لا ندرى ماهذا الخطاب ؟» .

فقال الحسين : «أتكتبون ثم تنكرون ؟» .

قال الحر : «إننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك وإنما أمرنا إذا لقيناك ألا نفارقك حتى نأتى بك إلى الكوفة إلى عبيد الله بن زياد» ..

فقال الحسن : «إن الموت أقرب إليكم من ذلك» ، ثم صاح فى أصحابه : «قوموا فاركبوا وانصرفوا» .

فاعترضه الحر قائلا : «إنهم لاينصرفون» .

فقال الحسين : «فماذا تريد ؟» .

قال : «أريد أن أنطلق بك إلى الأمير عبيدالله» .

قال : «إذن والله لا أتبعك» .

فنظر الحر إليه وعيناه تعتذران عن جسارته وقال : «لم أتلق أمرا بقتالك ، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى آتى بك إلى الكوفة ، فإذا أبيت فخذ طريقا لا يدخلك الكوفة ريثما أكتب إلى عبيدالله فأستشيره فى أمرك» .

زينب بنت علىّ

فرضى الحسين بذلك وأمر الناس بالركوب . فلما سمعت سلمى مادار بينهما ثبت لديها عجز الحسين عن قتال هؤلاء ، واستعاذت بالله من عاقبة ماتراه . ثم عادت إلى شأنها ، وآن لها أن تبحث عن عبدالرحمن وعامر بحثا دقيقا ، فلم تر خيرا من أن تدخل خيمه النساء ، وكانت تعرف أكثرهن وهن يعرفنها معرفة سطحية لأنها لم تقم بينهن طويلا . فيممت شطر خيمة أخرى دخلتها فرأت امرأة لم يقع نظرها عليها حتى عرفت انها زينب أخت الحسين ، وكانت شديدة الشبه به لأنهما من أم واحدة (فاطمة بنت الرسول) ولكنها رأتها فى انهماك وبغتة وقد علت جبينها دلائل الاهتمام وعيناها تتوقدان ذكاء ، وكانت زينب منصرفة إلى طفل بين ذراعيها لايزيد عمره على سنة وتشدو له وعيناه ذابلتان يسيطر عليهما النعاس وقد أشرق وجهه كأنه يتدفق نورا

وحياة، فعلمت سلمى انه على الأصغر ابن الحسين وهو أصغر أولاده، وكان للحسين ثلاثة أبناء اسم كل واحد منهم علي. وانما يميزون بعضهم من بعض بلقب السن فالأكبر اسمه على الأكبر والثانى على الأوسط (زين العابدين) والثالث على الأصغر.

أما زينب فحين وقع نظرها على سلمى عرفتها واستغربت حضورها– على حين فجأة – فى تلك اللحظة. ولكنها لشدة ما عانته من الأهوال لم تعد تستبعد شيئا. فابتسمت ابتسامة الترحاب واستأنست بها وأجلت الاستفهام عن حالها إلى فرصة أخرى. فأسرعت سلمى إليها وهى تشاركها بعواطفها وتعرض عليها مساعدتها. فأشارت إليها زينب قائلة: «خذى هذا الغلام على ذراعك ريثما ينام»، فتناولته. فلما خلت يدا زينب، تحولت إلى فراش عليه غلام مضطجع، فتبعتها سلمى ببصرها وتفرست فى العرق من جبينه، وذبلت عيناه وهما مفتوحتان حمراوان كالدم وعلامات الحمى بادية عليهما. ورأت صبية جميلة الخلقة بجانب المريض، عليها مظاهر الاضطراب، والدموع فى عينيها مع ما يتجلى فى وجهها من البشاشة. فعلمت سلمى انها سكينة بنت الحسين أخت ذلك الراقد. وكانت سكينة من أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقا مع خفة الروح.

فوقفت سلمى، تنظر إلى زينب.. فاذا هى قد دنت من فراش المريض وجست يده ومسحت العرق عن وجهه. ثم التفتت إلى سكينة وقالت: «لا بأس عليه يا حبيبتى بإذن الله، ولن تلبث الحمى أن تفارقه».

فلم تجبها سكينة الا بالبكاء ثم رفعت صوتها وقالت: «صبرا على حكم الله».

فقالت زينب وهى تتجلد: «قومى يا بنت أخى.. هلمى بنا نتأهب للرحيل، فإن والدك قد أمر بالركوب».

وكان الطفل قد نام على ذراعى سلمى، فقالت زينب: «بورك

فيك، يا بنية»، وارادت ان تأخذ الطفل وقالت: «أرى أن أضجعه فى الهودج ونحن على أهبة الرحيل».

قالت سلمى: «إنى فى خدمته إلى حيث يسير. دعى أمر العناية به إلىَّ وأعدى شئونك».

فأثنت عليها وانصرفت إلى فراش على فأنهضته، وأمرت من معها من النساء والجوارى بشد الرحال.

وكان الرجال قد أخذوا فى تقويض الخيام وتحميل الأحمال، وركبت سلمى فى هودج مع زينب والطفل وهى تتوق إلى الاستفهام عن عبدالرحمن، ولكنها استحيت أن تسألها وهى فى تلك الحال.

أقلع الركب وساروا فى طريق وسط بحيث تكون الكوفة إلى يمينهم. والحر ورجاله سائرون بالقرب منهم ليمنعوهم من الرجوع اذا أرادوا..

وكانت زينب وهى فى الهودج تشرف من خلال الأستار على أخيها وتعود إلى مقعدها وهى تتأوه. فعلمت سلمى انها انما تفعل ذلك لشدة قلقها واضطرابها. فأرادت أن تسليها وتخفف عنها وهى تتوقع أن يتطرق الحديث إلى حبيبها فقالت: «ما لى أراك فى هذا الاضطراب يا مولاتى؟».

فتنهدت زينب ونظرت إلى سلمى نظر التأمل وقالت: «تسألينني عن سبب اضطرابى وأنت ترين ما نحن فيه؟.. ألا تعلمين أننا ذاهبون إلى القتل؟».

قالت: «ولماذا تقولين ذلك؟ إن الله ينصر نصراءه ويرفع كلمتهم».

قالت: «صدقت يا بنية ولكنك لو عرفت ما ينتظرنا فى الكوفة من الأهوال، لعجبت لمسيرنا.. ومعنا الأطفال والغلمان والنساء وفيهم المرضى والضعفاء والرضع.. وليس معنا من الرجال إلا اخوتى لأبى وهم ستة: العباس، وجعفر، وعبدالله، وعثمان، وعبيد الله، وأبو بكر.. وما من أولاد أخى الحسين من يستطيع القتال إلا على الأكبر..

وهذا على الأوسط غلام مريض . ومعنا من أبناء أخي الحسن - رحمه الله - اثنان صغيران: ابو بكر، والقاسم ، وبضعة آخرون من أبناء عمي عقيل الذين قتل أخوهم مسلم في الكوفة...» ثم تنهدت وقالت: «آه لو تعلمين كيف قتلوه؟..»

فقالت سلمى : «من أنبأكم بمقتل مسلم؟»

قالت : «لم نسمع به إلا بالأمس وكان أخي قد أرسل نفرا من أصحابه للبحث عن حقيقة الحال، وفيهم اثنان كنديان فلما سمعت سلمى ذكر الكنديين خفق قلبها عساهما أن يكونا عامرا وعبدالرحمن، ولكنها تجلدت وسألتها: «ومن هما ذانك الرجلان يا سيدتي؟»...

قالت : «لم أرهما يا بنية، ولكني سمعت أخي يذكر أن أحدهما ابن أخ حجر بن عدى وهو الذى قتله معاوية بن أبي سفيان ظلما...»

ولم تكد زينب تتم قولها حتى ارتعدت سلمى، وصعد الدم إلى وجهها بغتة وأخذت الدموع تتألق في عينيها، أخذت تروى لها ما أصابها .

فلما فرغت من حديثها كانت زينب قد آنست فيما سمعت من سلمى عبرة وموعظة وأعجبت بغيرتها على الاسلام، وخصوصا على بيت أبيها الامام على، فقالت لها : «ان حديثك أثر في خاطرى تأثيرا كبيرا وهون على ما كنت أتخوفه من الموت»، ثم فتحت ستار الهودج وقالت : «انظرى إلى هؤلاء وهم - خيرة بيت الرسول - انهم ملقون بأنفسهم إلى القتل لأنهم يعتقدون ان الحق في جانبهم».

فشعرت سلمى أنها بالغت في شكواها .. فابتدرتها قائلة: «إني لا أجهل ما نحن فيه يا مولاتي.. ومن هو عبدالرحمن ومن أنا أو كل المسلمين بالنسبة إلى أبناء بنت الرسول وأولادهم؟... ولكن يسوءني أن يغلب الباطل الحق، وأن أرى الطغاة ينتصرون

والكرام يغلبون» .

وبينما هما في هذا الحديث، اذ شعرتا بالهودج قد وقف وسمعتا لغطا.. فأطلت سلمى من خلال الأستار فرأت الركب قد وقف ووقف الحر ورجاله بجوار الحسين ورجاله. واذا برجل على ناقة قادم من جهة الكوفة ، وتقدم إلى الحر ودفع إليه كتابا..

فقالت زينب: «ماذا عسى أن يكون خبر هذا الساعي وما في كتابه؟» ، قالت ذلك وترجلت، فترجلت سلمى، وأسرعتا إلى الحسين ووقفتا تنتظران ما يكون من أمر ذلك القادم.. فإذا بالحر قد تناول الكتاب وقرأه ثم تحول إلى الحسين وهو يقول : «هذا كتاب من الأمير عبيدالله بن زياد..» .

ثم قرأه فاذا فيه : «أما بعد .. وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيني بك والسلام» .

فلما فرغ الحر من تلاوة الكتاب نظر إلى الحسين كأنه يعتذر له عن ذلك الأمر ... ثم ساقهم الرسول إلى كربلاء.

وأشرفوا في الصباح على كربلاء وسلمى في الهودج، فرأت جند الكوفة قد ملأوا السهل وحالوا بينهم وبين الماء.. فتطاولت بعنقها لعلها ترى الشيخ الناسك قادما لكي تستطلع منه حال عبدالرحمن بعد ما سمعته من سيره إلى الكوفة أو تعلم منه شيئا يهم الحسين في تلك الحال.. فلم تر أحدا.

أما الحسين وأهله ، فلما وصلوا إلى كربلاء ضربوا خيامهم وجعلوا أخبية النساء إلى الوراء وخيام الرجال إلى الأمام.

ولم تشأ زينب أن تترك أخاها وحده، فسارت إلى خيمته وتبعتها سلمى وهي لاتقل قلقا عنها . فإذا بالحسين بباب خيمته يصلى فصبرتا حتى فرغ من صلاته، فرأتا رجلا من جند الكوفة قادما عليه، فلما وصل إلى الحسين حياه وقال له : «جئت برسالة من رئيس هذا الجند عمر بن سعد»

قال : «وما هى رسالتك؟»

قال : هو يسأل ما الذى جاء بك وماذا تريد؟» .

فقال له الحسين : «قل له ان أهل مصركم هذا كتبوا إلى أن أقدم فقدمت . فأما اذا أكرهتمونى فأنا أنصرف عنكم. أو آتى يزيد بن معاوية فأضع يدى فى يده» .

فلما سمعت سلمى قوله تناثر الدمع من عينيها لما توسمته فى جوابه من دلائل الخوف والضعف.

ولما عاد الرسول بالجواب التفت الحسين إلى أخته زينب وقال لها : «وما الذى جاء بك يا أخيه؟» .

قالت : «أتسألنى عما جاء بى ؟ ومن لى فى هذه الأرض بعدك ؟» ...

فدمعت عينا الحسين وهو يتجلد ويتظاهر بالصبر..

الحسين والشيخ الناسك

أما سلمى فقد أخذت تتفقد المكان فلاحت منها التفاتة إلى أحد جوانب المكان فرأت شبحا مسرعا من ناحية الكوفة عرفت أنه الشيخ الناسك فخفق قلبها وهرولت وخرجت لتلقى الشيخ الناسك.. ولما دنت منه سمعته يدمدم ويتمتم فأقبلت عليه حتى التقيا بقرب خيمه الحسين ، فأرسل الناسك شعره على وجهه وأشار إليها أنه يريد أن يكلم الحسين فاستبشرت بإشارته. ومشت معه إلى باب الخيمة، فلما رآه الحسين استغرب منظره ولكنه رحب به وتوسم فيه الخير فقال : «أهلا بالشيخ الجليل» .

فقال الشيخ : «ارجع يا حسين .. ارجع إلى المدينة إنها خير لك وأبقى. إن الناس هنا يريدون بك شرا ولن تقوى على قتالهم .. «انظر يا مولاى إلى هذا الجند انهم أربعة آلاف رجل بقيادة عمر بن سعد، وقد أمروا أن يقاتلوكم وأنتم فئة قليلة لاتقوون عليهم» .

فتأثر الحسين وقال : «إنى أرى رأيك ، فهل من رجوع ؟»

قال : «اطلب الرجوع فان قبلوا كان به وإلا فانك...»

وبكى بصوت عال فبكت سلمى .. وأما الحسين فقال: «لقد علمت مصيرى لأنى رأيت جدى صلى الله عليه وسلم الليلة يدعونى إليه» .

فكفكف الشيخ دمعه وقال : «أما وقد رأيت رغبتك فى الآخرة فاعلم ان ابن زياد لم يجب طلبك لما قلت إنك اما إن تنصرف أو تضع يدك فى يد يزيد بن معاوية، وكان قد أوشك أن يجيبه لولا ذلك الخائن» .

قال : «ومن هو ؟»

قال : «لما عرضت رسالتك على ابن زياد قبلها ولكن رجل السوء كان حاضرا وهو شمر بن ذى الجوشن، فقام إليه وقال له : «أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك ولم يضع يده فى يدك .. فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن. ولكن لينزل على حكمك ولك إما ان تعاقبه أو تعفو عنه فاستصوب ابن زياد الرأى، وبعث كتابه إلى عمر بن سعد رئيس هذا الجند وهذا هو فحوى كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد : «إنى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولا لتنميه السلامة والبقاء ولا لتكونن له عندى شافعا. انظر فإن نزل الحسين وأصحابه على حكمى واستسلموا فابعث بهم إلى، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون . وان أبيت فاعتزل عملنا وجندنا وول الشمر بن ذى الجوشن على العسكر ، والسلام» . وقد جاء شمر اللعين بذلك الكتاب إلى عمر . فعنفه عمر وقال له : «إنى أظنك نهيته أن يقبل بما كتبت به وأفسدت علينا أمرا كنا قد رجونا أن يصلح» ، فلم يصغ شمر لقوله، وخشى عمر أن يخالفه فيقتل.. فاتفقا أن يعملا معا وتولى شمر إمارة الرجالة وأظنه قادما إليك فى الغد» .

فلما سمع الحسين كلام الناسك قال : «اننا صابرون لحكم الله، والله مع الصابرين» .

وبعد فترة جاءه أخوه العباس وقال: «قد استمهلتهم إلى الغد فامهلونا على أن نستسلم فيسيروا بنا إلى أميرهم عبيد الله بن زياد، وإلا فليس عندهم غير الحرب»

شهامة الرجال

فلما سمع الحسين ذلك وقف وصاح فى أهله فاجتمع حوله كل إخوته وأبناء عمه وكل من معه من الرجال ووقفوا ينتظرون ما يقوله وكلهم طوع إشارته. فوقف فيهم موقف الخطيب وقال: «أثنى على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء. اللهم انى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا فى الدين وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة، فاجعلنا من الشاكرين. أما بعد فإنى لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا من أصحابى ولا أهل بيت أبر من أهل بيتى، فجزاكم الله عنى خيرا. ألا وإنى قد أذنت لكم فانطلقوا جميعا فانكم فى حل ليس عليكم منى ذمام».

فصاحوا جميعا بصوت واحد: «لم نفعل ذلك لنبقى بعدك لا أرانا الله ذلك أبدا».

أما الحسين فعاد إلى الكلام وخاطب أبناء عمه فقال: «يا بنى عقيل، حسبكم من القتل بمسلم فاذهبوا أنتم فقد أذنت لكم».

فأجابوه: «سبحان الله ماذا يقول الناس ؟ يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبنى عمومتنا ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن برمح ولم نضرب معهم بسيف ولاندرى ما صنعوا؟ لا والله لا نفعل.. ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك».

فإذا برجل رفع صوته بين الناس وقال: «واذا نحن نتخلى عنك؟ بماذا نعتذر إلى الله فى أداء حقك؟ أما والله لن أبرح حتى أطعن فى صدورهم برمحى وأضربهم بسيفى.. ولو لم يكن معى سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة».

فسألت سلمى عن القائل، فقيل لها: انه مسلم بن عوسجة. ثم

سمعت غيره قال مثل قوله فانتعشت آمالها وأعجبها ما رأته من الاتحاد والتضحية فى سبيل الحق.

فأثنى الحسين عليهم وتحول إلى خيمته.

صباح القتال

وأصبحوا فى اليوم التالى وهوالعاشر من المحرم، فانصرف الحسين إلى تنظيم رجاله، فأمرهم أن يدخلوا الأخبية بعضها فى بعض حتى تصير كأنها خباء واحد. وأن يستقبلوا القوم من وجه واحد والبيوت من ورائهم. ولم يكادوا يفعلون ذلك حتى رأوا الخيل أقبلت عليهم وفى مقدمتهم شمر بن ذى الجوشن، وكانت سلمى واقفة فى باب الخباء، فلما رأت شمر ارتعشت أعضاؤها ورفعت نظرها إلى السماء وطلبت إلى الله أن ينتقم منه.

أما الحسين فركب راحلته وعليه جبته وعمامته وتقدم وهو ينادى بأعلى صوته: «يا أهل العراق» فسمعه أكثرهم وأصغوا لما سيقوله فقال «أيها الناس اسمعوا قولى أما بعد فانسبونى وانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها. فانظروا هل يصلح لكم قتلى وانتهاك حرمتى، ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين المصدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله بما جاء من عند ربه. أو ليس حمزة سيد الشهداء عمى؟ ... أو ليس جعفر الطيار عمى؟ ... وألم يبلغكم ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، لى ولأخى: «هذان سيدا شباب أهل الجنة».

فأجابوه: «إننا لا نفهم ما تقول» وحملوا وحمل رجاله.

وبينما هم فى ذلك اذ رأت سلمى فارسا مقبلا من معسكر أهل الكوفة يستحث فرسه نحو الحسين. وكان الحسين واقفا ينظر ما يحدث وهو لايصدق أنهم يحاربونه، فلما رأى الفارس مقبلا بدا عليه الاهتمام بوصوله. ولم يكد يقترب حتى عرف انه الحر بن يزيد الذى كان قد لقيهم قبل وصولهم إلى كربلاء، ورأته سلمى أيضا من خلال

الخيام فعرفته وتعجبت لقدومه، فلما وصل إلى الحسين رمى قوسه بين يديه وهو يقول: «جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله، أنا رافقتك فى الطريق ثم تركتك. وما ظننت أن القوم يردون ما عرضته عليهم ولا يبلغون بك هذه المنزلة. فإنى تائب إلى الله مما صنعت، فهل لى من ذلك توبة ؟».

فقال له الحسين : نعم .. يتوب الله عليك فانزل».

قال : «فأنا لك فارس .. أقاتلهم على فرسى، الى آخر ما يصير أمرى».

فقال له الحسين : «فاصنع مابدا لك».

ثم رأت سلمي الحر يسوق فرسه أمام الحسين نحو أهل الكوفة فتبعته ببصرها وأذنيها لترى ما يكون منه، فإذا هو ينادى أهل الكوفة قائلا : «يا أهل الكوفة، ، دعوتم هذا السيد الصالح حتى اذا جاءكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه وأمسكتم بنفسه وأحطتم به من كل جانب لتمنعوه التوجه فى بلاد الله العريضة، فصار كالأسير فى أيديكم ومنعتموه ونساءه وصبيته وأهله من ماء الفرات الجارى، يشربه اليهود والنصارى والمجوس وتتمرغ فيه الخنازير والكلاب، فهاهم قد صرعهم العطش»..

ولم يتم الحر كلامه حتى استهل أهل الكوفة القتال، وفى مقدمتهم عمر بن سعد، وكان عمر هذا أول من رمى سهما فى الموقع والتحم الفريقان وتراموا بالسهام حتى وقع بعضها فى الخيام.. وكان النهار قد أضحى، وسلمى تشاغل الطفل وتسكته، وقلبها يميل إلى النزال لعلها تلقى أجرا فى الدفاع عن الحق. وشاعت عيناها وهى تنظر الى القوم عن بعد، لعلها ترى ابن ذى الجوشن فلم تره بين الرجال. فصعدت على مرتفع والطفل بين ذراعيها وقلبها يختلج. فأرسلت بصرها فى ذلك السهل، فرأته مملوءا بالمشاه والفرسان من أهل الكوفة بما يزيد عددهم على أربعة آلاف، ، وليس مع الحسين إلا ٣٢ فارسا وبعض

المشاة. ولكنها رأت رجال الحسين لا يحملون على جانب من جوانب العدو إلا كشفوه، ثم مالبثت أن رأت الحر بن يزيد قد وقع قتيلا ووقع غيره.

ولم تستطع سلمى البقاء هناك خوفا على الطفل من نبل يصيبه، فعادت الى الخيام.

وكانت الشمس قد مالت ، فسمعت سلمى فى المعسكر أصواتا متداخلة، فأسرعت وخرجت من الفسطاط، وخرجت زينب فى أثرها.. فرأتا الحسين يصيح فى رجاله يدعوهم الى صلاة الخوف. فتجمع الرجال ووقفوا والنبال تتساقط عليهم، وصلى فيهم الحسين صلاة حارة يخشع لها قلب الجماد. فلما فرغوا من الصلاة، تجددت آمالهم واطمأنت قلوبهم – والصلاة خير ما يعزى الانسان فى ضيقه – فتقدم أحد رجال الحسين .... أقبل على أهل الكوفة، وفيهم حملة النبال وحملة السيوف بين فارس وراجل، وقال لهم : «ياقوم إنى أخاف عليكم من يوم الحساب.. ياقوم لا تقتلوا حسينا فيسحقكم الله بعذاب».. قال ذلك وهجم وهو يقاتل حتى قتل، وهجم غيره وهو يقاتل حتى قتل، وهجم غيره فى أثره.. حتى لم يبق من رجال الحسين إلا أهل بيته.

الاستسقاء للطفل

كل ذلك وسلمى لا تدرى ماذا تعمل، والطفل بين يديها وقد انشغل بالها بالغلام المريض، فلما رأت رجال الحسين يقتلون طار قلبها خوفا ونسيت مصيبتها وغلب عليها البأس، وأحبت أن تخالف الحسين وتقاتل معه. ولكنها لم تجد سبيلا الى ذلك والطفل يتوجع من العطش، وقد تقطع قلبها لبكائه. وبينما هى فى تلك الحيرة بباب الخباء، رأت عليا الأكبر ابن الحسين، وهو شاب صبوح جميل الصورة فى التاسعة عشرة من عمره تنبعث الهيبة من عينيه – رأته هاجما بسيفه مشرعا بيده وهو ينشد قولا حماسيا – فخيل اليها أنه فرج مرسل

من السماء. ولكنها ما لبثت أن رأته أصيب بطعنة فى صدره، فخر صريعا يتخبط فى دمه، وكان أبوه الحسين بالقرب منه فصاح : «قتل الله قوما قتلوك يابنى، ما أجرمهم»، قال ذلك، وانهمرت الدموع من عينيه.. فاندفعت سلمى تصيح: «قتلوه.. قتلهم الله..»..

وما أتمت كلامها حتى رأت زينب تسرع وهى تنادى : «ياأخياه وابن أخياه» وجاءت حتى مالت عليه.. فأخذ الحسين برأسها، فردها الى الخيمة. ونادى فتيانه، فقال : «احملوا أخاكم» فحملوه حتى وضعوه فى الفسطاط. ثم تكاثرت النبال المتساقطة هناك فأصيب غيره، وكلما أصيب واحد حملوه الى ذلك المكان..

وخافت سلمى على الطفل، فأرادت أن تختبئ به فرآها الحسين والطفل بين يديها فأشار اليها أن تأتى. فأتت اليه والطفل يبكى من شدة العطش، وقد بح صوته وتعب صدره وهى تحنو عليه لتقيه من النبال. فتناوله الحسين من بين ذراعيها وأسرع نحو المعركة، فأسرعت اليه وشخصت ببصرها اليه وقلبها يختلج خوفا عليه، ولم تفهم معنى ذلك ولم تعرف ماذا تعمل .. فإذا بالحسين يخاطب أهل الكوفة والطفل مرفوع بين يديه، كأنه يشير اليهم ويقول : «يا أهل الكوفة خافوا من الله واسقوا هذا الطفل الصغير؟.. ياقوم خافوا من الله واذكروا عذاب يوم أليم» .

فتأثرت سلمى من ذلك الكلام ظنت أولئك القوم سيشفقون على الطفل فيسقونه.. ولكنها لم تكد تفكر فى ذلك حتى رأت رجلا من نبالة الكوفة أوتر قوسه ورمى الطفل، وهو يقول : «خذ اسقه» فأصاب السهم أحشاءه فصاح الطفل صيحة الألم، ثم تحول صياحه الى أنين، فأحست سلمى أن السهم أصاب قلبها، وركضت الى الحسين والطفل يختلج بين يديه وقد تدلى رأسه على صدره والدم يقطر من جبينه.. فصاحت: «ويلاه ما أظلمهم، ويلاه ما أقسى قلوبهم، قتلوا الطفل»، ثم همت بتناوله فمنعها الحسين من ذلك، وقال لها : «لا تبكى يابنية إن له أسوة بجده وعمه وأهله الصالحين»، ثم رفع يديه والغلام بينهما،

وشخص ببصره الى السماء وقال : «إن تكن حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير منه، وانتقم لنا من القوم الظالمين» ثم حمله حتى وضعه مع قتلى أهل بيته، وفيهم أخوة الحسين وأولاده وأبناء عمه وأبناء أخيه. ثم التفت الى سلمى، وقال لها : «ارجعى يافتاة الى الخيام»، فتراجعت وقلبها يقطر دما وعيناها تسكبان الدمع، ولم تجد سبيلا الى مخالفة الحسين.

وبينما هى فى طريقها، وكفاها على عينيها تمسح الدمع وتندب القتلى، أحست بيد قبضت على يدها وجرتها بعنف شديد فأرادات أن تجذب يدها، ونظرت فإذا بالشيخ الناسك وهو كالأسد الكاسر قد طوق خصرها وحملها بين ذراعيه، كأنه من مردة الجان، وخرج بها من بين الخيام حتى أتى مضيقا فوق الخندق مر فوقه، وهى تظن نفسها فى حلم.. حتى اذا وصل بها الى كهف وراء الخيام، ألقاها الى الأرض وهو يلهث من شدة التعب، فصاحت فيه: «إلى أين تذهب بى ياعماه؟ دعنى أمت مع الحسين، فإنها أحسن موتة يرجوها المؤمن فى دنياه..»

فلم يستطع الشيخ أن يجيبها لتسارع أنفسه من التعب. ولكنه أشار اليها أن تصبر، فحاولت الإفلات منه والرجوع الى المعركة، فأمسكها وأقعدها وهو يقول بصوت متقطع : «وما الموت مما يسرع اليه؟ كيف تتركين عبدالرحمن؟!..»

فقالت : «أين هو عبدالرحمن، ألم يسبقنى الى العالم الآخر؟

قال : «ان عبدالرحمن لم يمت يابنية.. هدئى من روعك، واعلمى أن الحسين ميت ولا فائدة من الدفاع عنه».

قالت : «أتعلم أنه ميت وتطلب بقائى؟! وما الفائدة من بقائى وبقاء عبدالرحمن، اذا مات سيد شباب المسلمين، .. دعنى أمت معه»، قالت ذلك ونهضت، وهى تقول : لا .. لا يجرءون على قتله، وهو ابن بنت الرسول وسيد شباب المسلمين» .

فأمسكها الشيخ بيدها، وقال : «ألا تصدقين أنه ميت ؟» .

قالت : «لا» .

قال : «قومى وانظرى موتته» ..

فقامت وهى تهرول فى مشيتها حتى وقفت على أكمة تشرف على الموقعة، فرأت الحسين يمشى نحو فسطاطه والدم يقطر من فمه بسبب سهم كان قد أصابه ولم يقتله.. ولم يصل الى الفسطاط حتى أحاط به جماعة من رجال الكوفة فيهم شمر بن ذى الجوشن، فأرادت أن تصيح، فأمسكها الشيخ .

فوقفت كأنها على الجمر، وعيناها على الموقعة، فرأت رجلا هم فضرب الحسين على رأسه بالسيف، فقطع السيف عمامته وأصاب رأسه وامتلأت العمامة دما. فرفع الحسين، العمامة وطلب خرقة شد بها رأسه، وطلب عمامه أخرى فلبسها ، بينما رجع عنه شمر ومن كان معه .

هجوم اليأس

فلما رأتهم سلمى يتراجعون ظنتهم عدلوا عن قتله، ثم رأت الحسين يعود إليهم ومعه ابن أخيه عبدالله وهو غلام لم يراهق، وكان عند النساء، فلما رأى عمه فى ذلك الضيق لم يحجم عن أن يتبعه وزينب فى أثره. فسمعته يقول لها : «احبسيه يا أختى» فأرادت أن ترجعه فأبى، وامتنع عليها امتناعا شديدا، وقال : «والله لا أفارق عمى»

ولم يتم كلامه حتى رأى رجلا يهوى بالسيف على الحسين.. فصاح الغلام فيه : «ويلك يابن الخبيثة، أتقتل عمى ؟!» .

فضربه الرجل بالسيف، فاتقى الغلام ضربته بيده، فانقطعت يده الى الجلد حتى تدلت وهى معلقة بقطعة من جلد وأصيب رأسه. فنادى الغلام : «يا أماه» فهم به الحسين وضمه اليه، وهو يقول : «اصبر يا ابن أخى على ما نزل بك واحتسب فى ذلك الخير، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين» .

ومات الغلام لساعته، وألحقت جثته بجثث أهله، وسلمى تنظر.. فطار صوابها ولم تعد تستطيع صبرا، فإذا بالحسين قد دعا بسراويل يمانية يلمع فيها البصر قطعها ولبسها، فلما رأته يقطعها استغربت ذلك منه، فقال لها الشيخ : «أتعلمين لماذا فعل ذلك ؟» ..

قالت : «لماذا ؟» ..

قال : «قطع السراويل لكيلا يسلبوها بعد موته» .

قالت : «أهو ميت كما تقول ؟.. لا أظنهم يقتلونه» .

ولم تتم كلامها حتى رأت شمر بن ذى الجوشن هاجما عليه، وليس مع الحسين الا ثلاثة رجال قتلوا بين يديه ولم يبق سواه. فهجم الحسين عليهم وعليه العمامة والجبة وتلك السراويل المقطعة، وهى هجمة اليأس. وكأنهم ذعروا لهجومه، ففروا من بين يديه فرار الشاة من الذئب. فاستبشرت سلمى بذلك، وقالت للشيخ : «ألم أقل لك إنهم لن يقتلوه ؟.. ألا تراهم كيف يفرون أمامه ؟» ..

ولم تقل ذلك حتى رأت السهام تتساقط عليه كالمطر وقد صار كالقنفذ، فأحجم الحسين والرجال واقفون بإزائه.. لم يجرؤ أحدهم أن يبدأ بقتله، وعند ذلك خرجت أخته زينب الى باب الفسطاط، وصاحت وجند الكوفة يسمعها : «ياعمر بن سعد، أيقتل أبو عبدالله وأنت تنظر إليه» ، فلم يجبها .

فنادت : «ويحكم .. أما فيكم مسلم ؟!» فلم يجبها أحد .

مقتل الحسين

فثارت الحمية فى رأس سلمى، وأفلتت من يد الناسك واندفعت نحو الخيام، فاعترضها الخندق والنار تتقد فيه ، ولم تجد المضيق الذى حملها الناسك عليه.. فوقفت وهى تتلفت لعلها تجد لها مسلكا تمر عليه الى المعركة. فسمعت ابن ذى الجوشن يقول لرجاله : ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل، ثكلتكم أمهاتكم !» فالتفتت سلمى، فرأتهم حملوا عليه.. فضربه أحدهم على كتفه اليسرى فقطعها، وضربه آخر

على عاتقه فكبا الحسين على وجه الى الأرض، فصاحت سلمى وهى لا تدرى ماذا تقول : «ويلكم قتلتم الحسين.. شلت أيديكم» .

وهرولت ونفسها تحدثها أن تثب من فوق الخندق ، ولو وقعت فى النار. وكان الشيخ قد أدركها وأمسك بذيل ثوبها وهى لا تبالى به وعيناها تحدقان فى الحسين، وهو طريح بجانب جثة أولاده وإخوته وقد اختلطت دماؤهم، ولكنه لم يمت. فرأت شمر يثب عليه وسيفه بيده، فوضع السيف فى عنق الحسين وجزه حتى انفصل، فسمعت سلمى بعد الحز شخيرا. ثم رأت شمر يرفع الرأس بيده، وقد سقطت العمامة عنه وبان شعره وقد تخضب بالدماء، وأغمضت العينان، وناوله الى رجل بجواره، وقال له : «احمله الى الأمير عمر بن سعد» .

فغابت سلمى عن رشدها، ولم تعد تعرف ماذا تعمل، وكانت قد انتقلت من موضعها بغير أن تنتبه، فرأت على عرض الخندق خشبة، فأفلتت من الشيخ بالرغم منه ووثبت عليها وأسرعت نحو المعركة وهى تصيح : «ويلك ياشمر ياظالم يالعين.. كيف تلقى وجه ربك يوم الدين؟» .

وما وصلت الى فسطاط زينب حتى رأتها راجعة من المعركة ومعها نساء أخريات، وفى أثرهن بعض رجال الكوفة يقبض الواحد منهم على ثوب المرأة فتتنازعه وهى تفر من أمامه حتى ينزع ثوبها عنها. فأرادت سلمى أن تدافع فأمسكتها زينب بيدها وأدخلتها معها الفسطاط حيث الغلام المريض .

فدخلن الخباء، ودخل فى أثرهن رجال والسيوف مشرعة فى أيديهم، وهموا بفراش الغلام يريدون قتله، فصاحت سلمى فيهم : «ويلكم .. أتقتلون الصبيان؟» وخنقتها العبرات، وصاحت النساء مثل صيحتها .

وفى تلك اللحظة، وصل عمر بن سعد فقال لأصحابه : «لا تقتلوا أحدا من النساء، ولا تأخذوا منهن شيئا وكفوا عن المريض» وأمرهم أن

يحيطوا بالفسطاط لئلا يدخله أحد، وأوصاهم أن يحرسوا الخيام لئلا يخرج منها أحد .

أما سلمى ، فانقطعت للبكاء هى وزينب وسائر النساء حتى علت الضوضاء وارتفعت أصوات العويل ما يتفتت له الصخر ثم سمعت سلمى وقع حوافر وضجة، فأطلت من خلال الخيام فرأت عشرة فرسان جاءوا بخيولهم الى حيث جثة الحسين، ومعهم أميرهم عمر بن سعد .. أمرهم أن يطأوا ظهر الحسين بخيولهم فرأتهم يطأون جثته بحوافر الخيل، وهى تتألم لذلك، كأنهم يطأون عليها، فقالت فى نفسها : «وما عاقبة ذلك يارباه؟» . ولكنها لم تخبر زينب خوفا عليها .

ثم رأتهم يقطعون رءوس القتلى، فبلغ عدد الرءوس المقطوعة اثنين وسبعين رأسا، وحملوها الى ابن زياد فى الكوفة مع رأس الحسين ..

الندب والرثاء

أرسل الكوفيون رءوس القتلى الى ابن زياد، وباتوا تلك الليلة فى معسكرهم بقرب كربلاء ، وقد أقاموا حراسا يحرسون خيام الحسين وفيها نساؤه وجواريه وليس فيهم من الذكور إلا ابنه على الأوسط الملقب بزين العابدين وهو مريض .

أما سلمى، فانسلت بين الخيام حتى تجاوزت المعسكر ، وأشرفت على الموقعة وقد عرفت المكان بما ينعكس عن مستنقعات الدماء من الأشعة الحمراء. وبينما هى تخطو خطوة الخائف المتهيب، سمعت صوتا خارجا من بين القتلى، ورأت شبحا يتحرك . فجثت فى منخفض يكاد يواريها، وقد ودت لو أنها لم تأت الى ذلك المكان. على أنها مالبثت أن رأت الشيخ يقول :

«رحمك الله يابن بنت الرسول .. رحم الله بدنا حمله رسول الله على ذراعيه وقبله بشفتيه.. لعن الله القوم الظالمين.. كيف تجرأوا على هذه الفعلة الشنعاء؟ كيف مدوا أيديهم الى هذا الجسم الطاهر وفيه رائحة سيد المرسلين؟.. .

فلما سمعت سلمى الصوت، عرفت أنه صوت الشيخ الناسك، فاطمأن بالها . أحبت البقاء فى مكانها لتسمع ما يقوله، فسمعته يبكى ويشهق ويقول : «قبحهم الله.. ما أقسى قلوبهم. ألم يخافوا من موقف اليوم الرهيب؟ تجرأوا على قتلك. وفيك بقية من دم الرسول، وأنت ابن بنته. وقد قال فيك «أنا من حسين وحسين منى. أحب الى الله من أحب حسينا». قتلوا سيد شباب المسلمين قتلة لم يقتلها كافر ولا منافق. ولم يكتفوا بقتلك – وا أسفاه عليك – بل قطعوا رأسك ووطئوا ظهرك بالخيل. ولكننى أراك مستقبلا السماء وقد بسطت ذراعيك، كأنك تشكو أمرك الى ربك وتدعوه للانتقام منهم – وما ربك بغافل عما يعملون – الويل لى أنا الشيخ التعس، وويل لشيخوختى. كتب على أن أرى خيرة المسلمين يقتلون، وقد كنت أتوقع اذا حييت أن أراك ياحسين مالكا رقاب المسلمين، فتنتقم لى من ذلك الظالم الغادر قاتل الأبرياء.. فآخذ بثأر فلذة الكبد المقتول فى سبيل الحق، حتى اذا حانت ساعة الموت فارقت الحياة مجبور القلب وقد شهدت الحق سائدا والباطل منبوذا . لقد قضيت شيخوختى ناسكا هائما تائها لا آوى الى المنازل ولا أبيت الا فى الخلاء، ولكن أبى الله إلا أن أرى الحسين وأولاده وأبناء أخيه وأبناء عمه جثثا لا حراك بها».. ثم سكت واستغرق فى البكاء .

أما سلمى فلما سمعت نواح الشيخ.. واستغربت ماجاء فيه من التعريض والتلميح، ولم تفقه ما وراءه. ولو علم الشيخ إنها تسمعه ما صرح بما يكنه ضميره، وقد صبر على كتمانه بضع عشرة سنة.

ولبث الشيخ صامتا برهة، وسلمى تتوقع أن تسمع منه شيئا جديدا، .. فإذا هو قد نهض ثم ألقى بنفسه على جثة الحسين، وجعل يقبلها ويقول : «ما أطيب ريحك ياحسين، وما أزكى ترابك.. تبا لهم كيف يقتلونك وأنت بقية خاتم النبيين. أستحلفك بالله اذا لقيت حجرا أن تقرئه السلام، وتخبره أنى صبرت على قتله صبر الرجال.. وأصبر حتى

ألحق به.. وأراه وقد أخذت بثأره. وأرجو ألا أموت قبل أن أنال هذه النعمة.. واذا لقيت جدك رسول الله، أخبره بما فعل المسلمون بعده.. قل له انهم انقسموا على الخلافة، وباعوا الحق بالباطل.. ولا غرو فقد علم صلى الله عليه وسلم بذلك، وتنبأ به قبل وقوعه .

ثم نهض الشيخ عن الجثة، وقد تلطخ وجهه بالدم ..

ولم تعد سلمى تصبر عن اظهار نفسها، فتحفزت للوقوف. ولم تكد تقف حتى رأت الشيخ ينظر اليها ويتفرس فيها .. فلما عرفها ذعر ذعرا شديدا ، وصاح قائلا : «أأنت هنا ياسلمى؟!» وتحول مثل لمح البصر، وعدا عدو الظبى النافر يلتمس الفضاء.

فنادته واستوقفته وهو لا يسمع ولا يصغى.. فظلت واقفة حتى توارى عن بصرها، فاستجمعت رشدها ولم تستغرب ذلك النفور من الشيخ لعلمها بأطواره من ذى قبل، ثم مشت نحو الجثث وهى تتفرس فيها والجثث ترهب قلب الشجاع، فكيف وهى على تلك الحال بين يدى فتاة لم تتعود القتال. ولكن سلمى تفرست فى تلك الجثث.. فعرفت جثة الطفل المقتول لأنها أصغرها جميعا، فهمت وقبلته وأطلقت لنفسها عنان البكاء.

راس الحسين

ثم انتبهت وخشيت أن يشعر بها الحراس، فطرحت جثة الطفل فوق جثث أهله، وقالت: «الوداع الوداع أيها الساكنين بلا حراك».

ثم عادت الى الخيام حتى دخلت الفسطاط، فرأت زينب فى قلق عليها، فاعتذرت باشتغالها بأمر نفسها .

وفى ضحى اليوم التالى، عاد عمر بن سعد بجنده الى الكوفة، وساقوا معهم نساء الحسين وجواريه وبنتيه سكينة وفاطمة وأخته زينب وابنه عليا المريض، وتنكرت زينب فى ثياب حقيرة حتى لا يعرفها أحد، وسارت سلمى معها متنكرة أيضا حتى دخلوا الكوفة، فرأوا أهلها يطلون من النوافذ ليشاهدوا بقية بيت الرسول. وسلمى تتفرس فى الناس من

خلال النقاب لعلها تجد عبدالرحمن أو عامرا بينهم، لأن الناسك قد أكد لها بقاء عبدالرحمن حيا، ولكنها لم تر أحدا. حتى اذا أقبلوا بهم على قصر الإمارة، مشت زينب وسلمى ومعهما بعض الجوارى، وجلسن فى ناحية من القصر على مقربة من مجلس ابن زياد. وكان ابن زياد جالسا والناس حوله.. ورأت سلمى بين يديه رأس الحسين، وقد تعفرت وتقلصت شفتاه وتلطخ شعر لحيته بالدماء والتراب ، وابن زياد ينظر الى الرأس ويبتسم.. وفى يده قضيب يضرب به ثنايا الحسين. ورأت بجانب ابن زياد شيخا جليل القدر، عرفت بعد ذلك انه زيد بن أرقم صاحب الرسول.. فلما رآه الشيخ يضرب بالقضيب ثنايا الحسين، قال له : «ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين» ، قال الشيخ ذلك وانتحب باكيا ..

قال له ابن زياد : «أبكى الله عينيك .. أتبكى لفتح الله ؟ .. والله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك!» فنهض الشيخ من بين يديه .. وخرج.

ثم انتبه ابن زياد الى النساء الداخلات، فالتفت الى زينب وقال : «من هذه التى انتحت ناحية ومعها نساؤها؟» .

فلم تجبه زينب ..

وعاد ثانية وسألها عنها ، فقال له أحد المرافقين : «هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله» .

فنهض ابن زياد حتى أقبل عليها .. فلما رأته سلمى مقبلا ، بالغت فى التقنع لئلا يعرفها .. أما هو فحسبها من جملة جوارى زينب أو خدمها، فلم يلتفت اليها بل خاطب زينب قائلا : «الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم» .

فقالت زينب : «الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وطهرنا من الرجس تطهيرا .. إنما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا» .

فقال ابن زياد : «وكيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟» .

قالت : «كتب الله عليهم القتل ، وليجمع الله بينك وبينهم يوم القيامة» . فغضب ابن زياد واستشاط .. فقال له بعض أهل مجلسه : «أيها الأمير انها امرأة لا تؤاخذ بشىء من منطقها ولا تذم على خطئها» ..

فالتفت ابن زياد اليها وقال : «قد شفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة من أهل بيتك» .

فلما سمعت زينب ذلك الكلام أحست بضعفها، ورقت وبكت وقالت له : «لعمرى لقد قتلت كهلى ، وأبدت أهلى ، وقطعت فرعى» .

فقال لها على سبيل التهكم : «هذه شجاعة .. ولعمرى كان أبوها شجاعا شاعرا» .

نهاية المشهد

فهز ابن زياد رأسه هزة التهديد، وتحول الى مكان رأى فيه عليا بن الحسين وهو لا يزال مريضا، فقال له : «من أنت» فقال : «أنا على بن الحسين» .

فالتفت ابن زياد الى من حوله ، وقال «ألم يقتل الله عليا ابن الحسين» ..

فأجابه على قائلا : «كان لى أخ يسمى عليا قتله الناس» .

فقال ابن زياد : «بل الله قتله» .

فقال على : «الله يتوفى الأنفس حين موتها» .

فغضب ابن زياد وقال «وبك جرأة لجوابى؟ وفيك بقية للرد علىّ، اذهبوا به فاضربوا عنقه ..» .

فلما سمعت زينب ذلك، نهضت نهضة الأسد وتعلقت بالغلام وعانقته، وقال : «والله لا أفارقه ، فإن قتلته فاقتلنى معه» .

فنظر ابن زياد اليه واليها ساعة، ثم قال : «عجبا للرحم.. والله إنى لأظنها ودت أنى قتلتها معه .. ثم قام من مجلسه حتى خرج من

القصر ، ودخل المسجد فصعد المنبر فقال : «الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيدا وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته» .

فقام اليه عبدالله بن عفيف الأزدى، وكان من شيعة على، فقال له :«ياعدو الله ، ان الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه.. يا ابن مرجانة تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين!»

فقال ابن زياد : «على به..»

فأخذه الجلادون ثم قتلوه.. وكان قتله قاضيا على المجاهرة بنصرة أهل البيت .

أما سلمى، فإنها لم تفتر لحظة عن التفرس فى وجوه الناس والتسمع لما يصل اليها من أحاديثهم ، لعلها تسمع شيئا عن عبدالرحمن أو عامر .. فلم تقف لهما على أثر . وهى لا تستطيع الخروج الى المدينة للبحث عنهما لأنها فى رأى الناس من جملة نساء زينب، ولابد من إرسالها معهن الى دمشق، ولم يكن لها أمل فى بقاء عبدالرحمن لو لم تسمع الناسك يقول ببقائه.

أما ابن زياد فأمر برأس الحسين ، فداروا به فى طرقات الكوفة على رمح، ولم يبق أحد الا رآه وفيهم من شمت بموته – وهم قليلون – ولكن أكثرهم ودوا لو أنهم لم يقتلوه.

السفر إلى دمشق

وبعد أن طافوا برأس الحسين فى أسواق الكوفة، أمر يزيد جماعة من رجاله أن يحملوا الرأس — ورؤوس أصحابه — ومن بقى من أهل بيت الحسين، إلى دمشق ليرى يزيد رأيه فيهم، فحملوا الأحمال وقاموا يطلبون الشام، وسلمى فى جملة الأسرى لاتفارق زينب وسكينة وفاطمة، وكانت تعزية كبرى لهن، ولم يكن عالما بحالها إلا زينب، ولكن مصابها شغلها عن أن تفكر معها فى أمر عبدالرحمن وعامر، ولم تتجرأ سلمى على فتح ذلك الحديث.

وكان يزيد بن معاوية بعد أن أرسل ابن زياد واليا على الكوفة

وأوصاه بدفع الحسين، لم يهدأ له بال وهو يفكر فى حال هذه الشيعة وما عسى أن يؤول إليه أمر الخلافة، لعلمه أن قلوب المسلمين مع الحسين، ولكنه كان شديد الثقة بابن زياد لما يعلمه من دهاء أبيه زياد من قبله.. على أنه لم يكن يتوقع بلوغ القسوة بابن زياد حتى يفتك بالحسين وأولاده وأهل بيته إلى هذا الحد.

وكان لايهدأ عن أن يطلب الأخبار، فتأتيه مع من يرد عليه من رسل ابن زياد حينا بعد حين.. فعلم بنهوض الحسين من مكة وقدومه إلى الكوفة، ثم لم يعد يسمع شيئا، حتى إذا كان فى مجلسه ذات يوم، وقد جلس الأمراء والأعيان بين يديه، وإذا بغلامه يدخل عليه وينبئه أن بالباب رسولا من الكوفة، فخفق قلب يزيد لما يتوقعه من الخبر الجديد فقال: «ليدخل».

فدخل رجل عليه أمارات السفر، وقد تزمل بعباءته والتف بكوفيته، فابتدره يزيد قائلا: «من الرجل؟».

قال: «زحر بن قبس رسول عبيد الله بن زياد إلى أمير المؤمنين».

قال: «وما وراءك؟».

قال: «أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره».

فاستبشر يزيد وأشرق وجهه، وابتسم وقال: «بشرك الله بالخير»..

قال: «أعلم يا أمير المؤمنين أن الحسين بن على ورد علينا مع ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته، فسرنا إليهم فسألناهم أن ينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال».

فقال: «وهل قاتلتموهم؟...».

قال: «نعم يا أمير المؤمنين، إننا عدونا عليهم عند شروق الشمس، فأحطنا بهم من كل ناحية حتى إذا أخذت السيوف مآخذها، جعلوا يهربون إلى غير وزر، ويلوذون بالحفر، كما لاذ الحمائم من صقر».

فصاح يزيد: «بورك فيكم، وشد أزرنا بكم».

فقال زحر: «ثم والله حتى أتينا على آخرهم...»

فابتدره يزيد وقد بغت وقال: «وهل قتلتموهم جميعا؟».

قال: «نعم يا مولاى».

فصاح يزيد صيحة قوية، وقال: «والحسين؟....».

قال زحر: «والحسين أيضا».

فدمعت عينا يزيد، وأطرق وهو يقول: «لعن الله ابن سمية.. لقد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين.. أما والله لو ظل على قيد الحياة، لعفوت عنه.. رحم الله الحسين»(١)

الندم

خرج الرسول، ويزيد لايزال مطرقا وقد قطب حاجبيه وبان الحزن على وجهه، وفيما هو في ذلك سمع رجلا فى صحن الدار يقول: «جئنا برأس أحمق الناس وألأمهم».

فصاح يزيد: «من ينادى هذا النداء؟....».

قالوا: «هذا محفر بن ثعلبة ومعه جماعة يقولون إنهم جاءوا برأس الحسين».

فقال يزيد: «خسيء محفر.. والله ما ولدت أم محفر أحمق منه!».

ثم قال: «أين الرجل؟ ادخلوا به على..».

فأدخلوه عليه ورأس الحسين على كفه، وقد تصاعدت ريحه.. فأقبل الرجل حتى وضع الرأس بين يدى يزيد على البساط، ومنظره ينفطر له القلب، وقد تكمش جلده، وتجمد شعره، واختلطت رائحة الطيب بروائح الدم المتعفن، وتغير لون الشعر بما خالطه من الدم والتراب، فلما وقع نظر يزيد عليه اقشعر بدنه، وتصور هول ذلك العمل الفظيع، وتذكر أنه يرى رأس ابن بنت الرسول وتهيب.

وما كاد ينظر إلى الرأس حتى خرجت إليه من وراء الستار امرأة مقنعة هى إحدى نسائه، واسمها هند بنت عبدالله.. فاستغرب القوم خروجها على تلك الحال، وهم يزيد أن يسألها عن سبب خروجها،

(١) هذه رواية منصفة ليزيد مما يدل علي تحري جرجي زيدان أن يكون موضوعيا محايدا مع ماسبق من روايات أوردها من يزيد.

فصاحت فيه وهى تشير بأصبعها إلى الرأس قائلة: «يا أمير المؤمنين، هل هذه رأس الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله؟».

قال وهو يتلجلج فى كلامه: «نعم، فألبسى الحداد على ابن بنت الرسول.. عجل ابن زياد فقتله.. قتله الله».

فأخذت فى العويل والبكاء، ثم أدخلوها إلى غرفتها وأذن يزيد للناس، فدخلوا عليه والرأس بين يديه، وهو ينظر إليه.

وكان فى جملة الحضور رجل من أصحاب الرسول، اسمه أبو برزة الأسلمى، فلما رأى يزيد ينكت ثغر الحسين، قال له: «أتنكت بقضيبك ثغر الحسين؟، أما والله لقد أخذ قضيبك فى ثغره مأخذا لربما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشفه، أما انك يايزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ويجيء هذا ومحمد شفيعه»، قال هذا ثم قام وولى.

فاطمة بنت الحسين

ثم سمع يزيد جلبة فى الدار، فقال: «ما هذه الجلبة؟».

فقال غلامه: «هؤلاء نساء الحسين فى صحن الدار».

قال: «ادخلوهن....».

فأدخلوهن، وفيهن زينب أخت الحسين، ومعها فاطمة وسكينة بنتا الحسين، وبقية النساء وفى جملتهن سلمى، وكانت سلمى مقنعة كسائر النساء، فلم تكن تخاف أن يعرفها يزيد، وبالغت فى التقنع لإخفاء أمرها، وما لبثت أن رأت تلك القاعة حتى تذكرت يومها فى دار يزيد وموقف عبدالرحمن هناك، فتجددت أحزانها.. على أنها صبرت نفسها لترى ما يكون..

أما سكينة وفاطمة، فتطاولتا من وراء الناس لتريا رأس أبيهما، ويزيد يستره عنهما.. فلما رأتا الرأس صاحتا وصاح سائر النساء وولولت بنات معاوية، وقالت سكينة، وكانت أكبر من فاطمة: «أبنات رسول الله سبايا يا يزيد؟».

فقام رجل من الحضور وهو من أهل الشام، وقال ليزيد: «هب لى هذه» يعنى فاطمة.

فلما سمعت فاطمة قوله، ارتعدت فرائصها وعلمت أنه يريد أن يأخذها سبية، فخافت وأمسكت بثوب زينب، فالتفتت زينب إلى الرجل، وقالت: «ما ذلك لك ولا له».

فغضب يزيد وقال لها: «كذبت والله، إن ذلك لى.. ولو شئت أن أفعله لفعلت».

قالت: «كلا والله ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا».

فغضب يزيد واستطار ثم قال: «أإياى تستقبلين بهذا؟... إنما خرج من الدين أبوك وأخوك».

قالت زينب: «بدين اللـــــه ودين أبى وأخى وجدى، اهتديت أنت وأبوك وجدك».

قال: كذبت يا عدوة الله».

فقالت: «أنت أمير تشتم ظالما وتقهر بسلطانك ......».

فاستحيى وسكت..

خروج سلمى

وكانت سلمى فى أثناء ذلك تنتفض من شدة الغضب، وتوقعت أن يؤول الأمر إلى الفضيحة، وتهيأت للدفاع بأية وسيلة كانت، فلما رأت يزيد سكت، هدأ روعها.. ثم رأته يشير بيده أن يخرجوهن، فخرجوا بهن إلى دار النساء، فخافت أن يفتضح أمرها هناك إذ لاتستطيع البقاء مقنعة بين النساء، فاحتارت فى أمرها ولم تر خيرا من أن تشكو حالها إلى زينب وتستشيرها لأنها كانت على علم بقصتها مع يزيد.

فلما خرجوا بهن من مجلس يزيد وأدخلوهن دار النساء، أقبل عليهن نساء يزيد وسائر أهل بيته وبكين معهن، وأقاموا المأتم وسلمى تتظاهر بالانشغال، وهى ترى نساء يزيد وبينهن تلك العجوز، وكانت

تستتر منها وتنتظر فرصة لتخاطب زينب فى الأمر.

وفى ذلك المساء جاءتها على انفراد واستشارها فى أمرها..

فقالت زينب: «لاتظنى أنى نسيت حالك، وقد كنت وأنا فى غمرة بكائى ونحيبى أفكر فى أمرك.. فاعلمى يا بنيـــة أن يزيد خيرنا فى الإقامة حيث نشاء، وسنختار الإقامة فى المدينة، فإذا شئت المضى معنا، فأهلا بك ومرحبا.....».

قالت سلمى: «إنى على ما تشائين يا مولاتى، ولكننى مازلت آملة.. و.....» وبكت.

فأدركت زينب أنها تقصد أملها فى اللقاء بعبدالرحمن فقالت: «لاخيب الله لك أملا»، وسكتت لأنها لاتدرى ما آل إليه أمر عبدالرحمن وعامر بعد مسيرهما إلى الكوفة، وإن كانت ترجح موتهما، وبعد السكوت برهة، قالت زينب: «ذلك أمر سننظر فيه بعد خروجنا، ولكننى أرى بقاءك هنا خطرا».

قالت: «وأنا أراه كذلك، فهل تأذنين لى بالخروج إلى الغوطة، فأقيم فى دير خالد ريثما تخرجن، فأكون معكن إن شاء الله»، وهى إنما اختارت الدير لكى تزور قبر والدها، وتبكيه مرة أخرى..

فقالت زينب: «لقد رأيت رأيا حسنا.. امكثى هناك حتى نخرج»..

ثم تظاهرت زينب بأمر تريد إرسال سلمى فيه إلى خارج القصر، وأخرجتها منه.. فخرجت وهى كالضائعة، فاقدة الرشد لفرط ماهاج من أشجانها هناك، إذ تذكرت كل ما قاسته من الأهوال فى ذلك المكان، فلما أصبحت خارج القصر، سارت فى أسواق المدينة تطلب الغوطة حتى إذا اشتمت رائحة البساتين، تذكرت حالها مع عبدالرحمن وثارت أحزانها.. فسارت توا تلتمس قبر والدها.

الرعب

وفيما هى على تلك الحال، وقد أمسكت أنفاسها لكلا تكدر ذلك السكون، وأصبحت كالجماد لفرط خوفها ووحشتها، سمعت سعالا

قويا فوثبت بالرغم منها.. وصاحت صيحة الرعب، ولم تكد تتحقق من جهة الصوت حتى رأت شبحا قادما إليها من وراء شجرة بالقرب من الجميزة، فصاحت: «ويلاه من أنت؟ ولم تتم كلامها حتى سمعت قائلا يقول: «لا تخافي يا سلمى يا ابنتي.. لاتخافي».

ثم دنا الشيخ منها، فإذا هو الشيخ الناسك.. فقال لها: «سامحيني يا سلمى.. وأنا لم أزعجك إلا مكرها» فتشددت وجلست، وهي تقول: «أين عبدالرحمن؟»..

فلم يجبها الشيخ إلا بالبكاء، ويبكي بكاء الطفل، ويقول: «ياحبيبي يا حجر.. مت في سبيل نصرة الإمام علي.. قم انصر ابنه، بل قم وابكه وابك أولاده وسائر أهله.. فقد ماتوا جميعا.. فأنت جالس معهم الآن في دار البقاء».

فلما سمعته يقول ذلك ورأت حاله نسيت نفسها، قالت: «من أنت أيها الشيخ؟.. قل لي وفرّج كربي.. من أنت؟...».

فلمــــا سمع كلامها تغيرت حاله وسكت، كأنه ندم على ما فرط منه، ثم تجلد وقال لها: «إنك تسألينــــــي عن أمر ليس من شــــأنك يا ســــلمى.. اسكتي وابكي ما شئت، وإذا شئت أن تعلمي من هو الشيخ الناسك، فسوف تعلمين.. ستأتي ساعة ينكشف فيها أمره، وأرجو ألا ينكشف إلا مثلما يريد هو».

فسكتت سلمى، وخافت أن يبدو منه ما لاتريده، ثم أرادت أن تغير الموضـــوع، فقالت: «أخبرنــــي أين هو عبدالرحمن؟.. هل هو حي كما قلت لي؟».

قال: «لا أعلـــــم.. ولو علمـــــت ما كنت لأقول لك لأنك لا تصغين إلى قولي...».

قالت: «قل.. بالله قل.. إني مصغية».

قال: «أتعملين كما أقول لك؟».

قالت: «نعم أفعل كل ما تريده».

قال: أطلب إليك أن تتركي هذا العالم وتأتي معي إلى دير بحيراء

في بصرى، لنقيم فيه وإن كان يعز عليّ أن أفارق هذا القبر» قال ذلك واختنق صوته.

قالت: «وأين هو هذا الدير؟».

قال: على بعد بضع مراحل من هذا المكان».

الرحيل إلى الدير

وكانت سلمى قد استأنست بالناسك، ولما أحست بميله إليها، ورأت بكاءه على والدها، ولكنها ظلت في شك من أمره، ولم تجسر على أن تسأله عن حقيقة حاله.

فلما رأت عزمه على السفر إلى بصرى والإقامة في الدير، ولبثت برهة تفكر.

فلما رآها الشيخ ساكتة قال: «ما الذي يجول في خاطرك يا سلمى، أظنك تترددين في سفرك إلى دير بحيراء؟ وكأني بك تقولين كيف أسير إلى بصرى، وقد تركت عبدالرحمن في الكوفة، فاعلمي يا سلمى أني لو لم أيأس من وجوده هناك ما دعوتك إلى ذلك الدير.. آه لو علمت أين هو لقصدته».

فلم تزد سلمى من ذلك إلا أسفا لأن أملها كان لايزال متعلقا ببقاء عبدالرحمن في الكوفة.. فإذا لم يكن هناك فأين يكون؟ فازداد اضطرابها وقلقها، فلم تجد بدا من تسليم قيادها إلى ذلك الشيخ، وهي تثق في حسن قصده وصدق غيرته في سبيل الأمر الذي قامت هي لأجله، على أنها لولا بقية من أمل في نفسها بلقاء عبدالرحمن ما فضلت مكانا على الدير أو القبر، ثم قالت للشيخ: «وهل أترك بقية بيت الرسول، وقد فارقت زينب على أن أنتظرها هنا ريثما تخرج مع أهل بيتها إلى المدينة فأسير معها؟».

قال: «لا أرى أن تسيري معهم، فقد كفاك ما لاقيت من الأهوال في رفقتهم.. تعالي إلى دير بحيراء، فإنه ذو كرامة، ولنقم هناك حتى يأتي الله بالفرج».

قالت: «إني فاعلة ما تريد، ولنتوكل على الله، ولكن أين نبيت

الليلة؟».

قال: «نبيت هنا ولا خوف علينا والبلاد فى أمان.. نامى أنت وأنا ساهر، لأنى قد نمت طول النهار».

فلما أصبحا، قال الشيخ: «اعلمى يا بنية أننا سنسير بضعة أيام نحو الجنوب حتى نقبل على بصرى مدينة الروم ومركز تجارة بلاد العرب».

ثم قال لها: «امكثى هنا ريثما أعود إليك...».

وعاد ومعه جراب فيه زاد وفاكهة، فناولها إياه وقال: «هذا طعام يكفينا يوما كاملا».. فأكلت..

بصري

وبعد السير بضعة أيام، أشرفا على مدينة بصرى (وهى غير البصرة فى العراق) وكانت سلمى قد تعبت واستوحشت وتغيرت حالها.

فلما أطلا على بصرى، وهى من أكبر مدن حوران فى ذلك العهد، انبهرت سلمى لعظمتها وعمرانها وخصبها وسط تلك البلاد الجرداء التى يندر فيها الشجر، فاشتاقت إلى النزول فى المدينة لمشاهدة أسواقها، فقال لها الشيخ: «إذا أردت النزول إليها، فما أنا نازل معك.. قد تسنح لك الفرصة بعد حين لمشاهدتها، وأما الآن فتعالى معى إلى الدير».

دير بحيراء

فلما سمعت قوله، تفرست فى سحنته فرأته يشبه أن يكون كنديا من قبيلة أبيها، وزادها ترجيحا ما رأته من الغيرة على أبيها والانتصار لبيت على، ولم يزدها كل ذلك إلا حيرة وشكا، وهى مع ذلك لاتستطيع مخاطبة الشيخ فى هذا الموضوع لئلا يغضب.. فلم تر خيرا من الصبر حتى يتأتى لها استطلاع الحقيقة.

أما هو، فقال ما قاله وسار... فسارت هى فى أثره حتى أشرفا على الدير، فإذا هو بناءان أحدهما كبير، علمت سلمى أنها كنيسة والآخر صومعة على رابية، فمشيا نحو الكنيسة، فدخلا صحنها، فلما دخلت سلمى قالت للناسك: «ها أنا الآن فى دير بحيراء، فكيف ترى أن

تكون إقامتنا فيه؟».

قال: «إن فى الدير غرفا يقيم فيها المسافرون، والدير يقدم لهم مايحتاجون إليه من الأطعمة مجانا.. فتقيمين أنت فى غرفة، وأنا أقيم فى هذا البستان بالقرب منك، فنجتمع فى أثناء النهار ونفترق فى الليل.. فتبيتين أنت فى الدير وأنا أبيت تحت الشجر لأنى عاهدت الله على ذلك كما تعلمين».

فأطرقت سلمى هنيهة، ثم قالت: «ولكنى لم أر فى الدير نساء، فكيف أقيم وحدى؟» قال: «فى الدير نساء كثيرات، وأكثرهن يخدمن فى إعداد الطعام وغسل الثياب»، قالت: «أرى إذن أجعل نفسى فى جملة الخادمات، لكى تكون فى إقامتى فائدة».

الأخت مريم

وسار الشيخ الناسك إلى رئيس الدير، وقال له: «اننى وابنتى هذه نريد أن نقيم بقية حياتنا فى هذا الدير نعبد الله ونخدم عباده، وأنا شيخ ناسك لا آوى البيوت، ولكن ابنتى هذه تريد أن تكون فى جملة خادمات الدير فى إعداد الطعام وتنظيف الغرف، فهل تقبلوننا؟».

قال: «أهلا بكم ومرحبا»..

وأتوا لسلمى بثوب مما تلبسه خادمات الدير فلبسته، وهو لايقضى على لابسته بشروط الرهبنة، وإنما يقضى عليها بخدمة الدير بغير مقابل، ثم أرسل رئيس الدير سلمى إلى رئيسة الدير.. فرحبت بها وأعجبت بما شاهدته فيها من الجمال والهيبة، وما توسمته فى عينيها من الذكاء، وأسمتها اسما جديدا.. فصار اسمها مريم، ولم يمض قليل حتى أحبها كل نساء الدير ورجاله، وكلهم معجب بما آنسوه من تعقلها وتفانيها فى الخدمة، وقد زادها الانقباض والسكوت هيبة ووقارا.

ولم يكن يمضى يوم لا يأتى الدير فيه وفود من الضيوف من أنحاء جزيرة العرب والعراق والشام، وفيهم أهل التجارة وأهل السياحة وأصحاب النذور ونحوها.

وأصبحت الأخت مريم مضرب أمثال أهل الدير وضيوفهم فى

الرزانة والتعقل.

وكانت إذا اجتمعت بالراهبات أو الرهبان، ودار الحديث حول الأمور العامة، سمعت طعنا قبيحا فى يزيد وسوء تصرفه، وما يرتكبه من شرب الخمور والانشغال باللهو والطرب وضرب الطنابير وتربية القرود.. وكانت إذا سمعت ذلك ينقبض قلبها، وتقول فى نفسها: «لا يصلح الحاكم إلا إذا أتيح له الاطلاع على سرائر رعيته.. كذلك كان يفعل عمر بن الخطاب، فكان يتنكر ويخالط الناس فيسمع ما يقوله عجائزهم وصبيانهم وشبانهم وكهولهم، ويتدبر ما يسمعه من الانتقاد.. فيصلح خطأه وينصف المظلوم ويضرب على أيدى الظالمين، فساعده ذلك على تشييد مملكة الإسلام وإقامة دعائمها على العدل والحق.

وأما يزيد فإنه انشغل بنسائه وخموره، واستبد بأبناء الرسول، واضطهد أهل بيته حتى كاد يودى بالإسلام والمسلمين، وكاد يهدم بناء أسسه الخلفاء الراشدون على كتاب الله وسنة نبيه.

زيارة يزيد

قضت سلمى فى دير بحيراء سنتين وبعض السنة، وهى على تلك الحال، والشيخ الناسك معها، حتى ألفت الوحدة وكادت تنسى مصائبها.. لولا ذكرى عبدالرحمن، فإنها كانت إذا ذكرته استغرقت فى التأملات، فيخيل لها أحياناً انه لا يزال حيا.. فيتجدد أملها بلقياه.

وأصبحت ذات يوم، فرأت أهل الدير فى هرج ومرج، وقد أخذوا فى تزيين الأبواب والنوافذ ومد الأبسطة وذبح الذبائح.. فسألت عما دعاهم إلى ذلك، فقيل لها إن الخليفة قادم الى حوران، ولابد له من المرور بالدير والاقامة فيه يوماً أو يومين. فلما سمعت ذلك اختلج قلبها فى صدرها وتذكرت أشجانها، فانقبضت نفسها ولم تر لها مخرجاً من ذلك إلا بلقاء الشيخ الناسك. فلما أقبلت عليه، رأته جالساً تحت شجرة وعكازه بيده. فلما دنت منه، رفع بصره إليها، وابتدرها قائلاً: «إن الطريدة أوشكت أن تقع فى الفخ، فهل تفلت منك هذه المرة؟».

فشعرت سلمى للحال بتجدد آمالها بالانتقام، ثم أجابت:

«أرجو ألا تفلت، والله المستعان».

قال: «اعلمى ياسلمى أن يزيد قادم إلى الدير فى مساء هذا اليوم، وسيقيم هنا ليلة ريثما يستريح ثم يشخص إلى حوران.. فإذا استطعت أمرا ينسينا مصائبنا وأحزاننا، فإنك تفرجين كربنا وترفعين عن عاتق المسلمين ثقلاً كبيراً».

فأطرقت سلمى هنيهة، ثم قالت: «إنى فاعلة ذلك بإذن الله.. ولكن هل يسعدنى الحظ بعد ذلك بلقيا عبدالرحمن ؟».

قال: «إذا نجحت فى قتل هذا الرجل، فإنك تحيين عبدالرحمن.».

فاقشعر بدنها، وقالت: «إذن فأنت على ثقة من موته» ؟

قال: «كلا.. إنما أرجو أن تؤدى الواجب عليك، والله نصير المظلومين.. فإذا كتب لك لقاء عبدالرحمن فى هذه الدنيا فإنك تلقينه ظافرة وتعيشان سعيدين، وإلا فإنك تلاقينه فى الآخرة وقد انتقمت لأبيك ولأهل البيت وذلك يكفيك».

وأرادت أن تجيبه، فسمعت الناقوس يدعو الرهبان وسائر أهل الدير إلى العمل، فهمت بالرجوع. فناداها الناسك: «تمهلى ياسلمى» وتناول طرف ثوبه وفيه عقدة حلها، وأخرج منها ورقة ومد يده بها، وقال «خذى هذه الورقة فان فيها دواء الظلم، إذا شربه يزيد شفى الإسلام من دائه».

فعلمت انه سم، فتناولت الورقة وفتحتها، فرأت فيها مسحوقاً ناعماً.. فعادت وطوتها وخبأتها فى جيبها، وهرولت الى الدير حتى وصلت إلى المطبخ واشتغلت مع سائر النساء فى إعداد الطعام.

ولما مالت الشمس، أقبل الركب تتقدمه الخيالة وفى صدرهم يزيد راكباً على فرس عربى، وحين وقع نظر سلمى عليه عرفته فاقشعر بدنها وتذكرت حالها معه، ولكنها تجلدت ولبثت تنتظر ما يكون.

ولما ترجل يزيد، استقبله الرئيس وكبار أهل الدير ورحبوا به.. واستعطفوه ليقيم بينهم ويتناول العشاء عندهم، فأجاب دعوتهم.

فأمروا بالأبسطة ففرشت فى مكان معد لذلك، وجاءوا بأصناف

الأشربة الحلوة بألوانها الزاهية وقدموا ليزيد ورجاله فشربوا. ثم أمر الرهبان بإحضار الطعام فحملوه الى هناك، وكانت النساء تهيئه وتساعد الخدم فى إحضاره.

وفيما هم فى ذلك، أخذ يجيل بصره فى الراهبات الواقفات لخدمته، فوقع بصره على الأخت مريم.. فانبهر من جمالها وهيبتها وتذكر سلمى، وكان قد بلغه انها ماتت منذ عامين أو أكثر. فقال فى نفسه: «يا للعجب! كم يتشابه الآدميون» ؟!

وقضى مدة الطعام وهو يردد بصره فيها، فأحس بميل شديد إليها، وأعجب بها لشدة شبهها بسلمى.

أما سلمى، فكانت تتجاهل وتتظاهر بتقديم الأطعمة والأشربة، وهى مطمئنة البال إلى أن يزيد لا يمكن أن يعرفها بعد أن بلغه نبأ موتها من طبيبه.. وبخاصة لأنها بدلت اسمها وثيابها وسائر أحوالها.

أما يزيد فإنه شغف بالفتاة، وكتم شغفه بها ريثما يحتال فى استقدامها إليه.. فأخذ يلاطف الرئيس ويثنى على ما لقيه من كرمه وحسن وفادته، ويعده خيراً بكل ما التمسه منه. فلما نهضوا عن المائدة دعاه إلى خيمته وبالغ فى اكرامه حتى غربت الشمس، ودق ناقوس الصلاة فاستأذن الرئيس فى الانصراف فأذن له، ثم أسر إلى رجل من بطانته ما أضمر من أمر الأخت مريم، وكلفه استقدامها بحيلة.

فخرج الرجل إلى الرئيس وأبلغه سرور الخليفة مما لقيه من الإكرام والحفاوة، إلى أن قال: «وقد تعود الخليفة أن يتناول المرطبات قبل النوم».

فقال الرئيس: «اننا أعددنا كل ما ترتاح إليه نفسه، ونحن طوع إشارته».

قال: «ولكننى لا أظنكم تستطيعون القيام بكل ما يحتاج اليه».

قال الرئيس: «وكيف ذلك ونحن لا ندخر وسعاً فى سبيل مرضاته» ؟

قال: «لا يخفى عنك أن مولانا أمير المؤمنين تعود أن تعد له الطعام

فتاة جئنا بها معنا من دمشق، فمرضت فى أثناء الطريق فأرجعناها إلى أهلها.. وقد قضينا بقية السفر والخليفة لا يرى الطعام لذيذاً. فلما تناول العشاء عندكم الليلة أعجبه حسن طهوه، ورأى بين الناس فتاة أعجبه ذوقها فى إعداد المائدة، وتمنى لو أنها تصحبه بقية سفرة الى حوران. ولا أظن أن الراهبات يخرجن من الدير، ولذلك خشيت ألا تستطيعوا القيام بكل ما يحتاج اليه أمير المؤمنين».

فابتدره الرئيس قائلاً: «أن بين نساء هذا الدير فتاة ليست راهبة، ولكنها من أحسن النساء عقلا وذكاء، وهى تعد الطعام أحسن إعداد. فإذا كانت هى التى وقعت من مولانا أمير المؤمنين موقع الاستحسان، ألحقناها ببطانته فى هذا السفر ولا نظنها إلا فرحة بهذا الشرف العظيم».

فاستبشر الرجل بنيل المرام، وقال: «وأى فتاة هى؟».

قال: «هى التى ندعوها الأخت مريم».

فقطع الرجل كلامه قائلاً: «وهى التى أعجبت الخليفة، فهل تظنها ترضى بخدمته» ؟

فهز الرئيس رأسه فى استخفاف وقال: «ومن ذا الذى يحصل على هذا الشرف ثم لا يقبله؟».

كأس العسل

ونادى الرئيس رئيسة الراهبات، وطلب اليها أن تستدعى الأخت مريم. فلما جاءت ووقفت بين يدى الرئيس، قال لها: «اعلمى يابنية أن مولانا الخليفة مسافر الى حوران، ويحتاج إلى فتاة تعد له الطعام، فامتدحت له مهارتك فى ذلك. وقد تنازل أن تكونى فى خدمته، فابشرى بإقبال سعدك واذهبى اليه.. وأوصيك أن تبذلى الجهد فى إرضائه».

فسكتت سلمى وقد ارتسمت على وجهها علامات الاغتباط، وخفق قلبها سروراً بتلك الفرصة.

ففرح الرئيس أيضاً وأثنى على لطفها، وقال لها: «سيرى منذ الآن

مع هذا الأمير، واسهرى على خدمة الخليفة.. فإنه قد غمرنا بفضله وإحسانه».

فسارت سلمى وقد تهيبت تلك المهمة، ولكنها صممت على الفتك بابن معاوية مهما كلفها ذلك.

وكان يزيد فى انتظار رسوله، فلما عاد إليه ظافراً أثنى على صدق خدمته، وأمره أن يعد له المرطبات والفاكهة ليتناولها قبل النوم.. فأعد كل شيء وانصرف، وبقى يزيد فى الخيمة وحده، فاستدعى الأخت مريم فدخلت وقد تلثمت بالخمار.. وزعمت أن اللثام عادة من عادات أهل الدير.

فوافقها يزيد على رأيها ترغيباً لها فى خدمته، على أن ينال منها مرامه بعد سفره. واكتفى بأن يتمتع برؤية ما ظهر من عينيها. فلما وقفت بين يديه أمرها أن تناوله بعض الفاكهة، فقدمت له ماشاء وهو لا يبدى شيئاً مما فى نفسه مخافة أن تفر منه وتأبى الذهاب معه، ثم تظاهر بالنوم وقال لها: «كأساً من الماء المحلى بالعسل».

فقالت فى نفسها: «انى والله قاتلته بسلاحه» فتناولت الكأس وصبت فيها العسل، وتظاهرت باستحضار ماء بارد، فخرجت من الخيمة ويداها ترتعشان من عظم الاضطراب.. وفكرت هنيهة فى أمر السم الذى أعطاها أياه الشيخ الناسك، فرأت انها إذا صبته كله ربما يظهر تأثيره عاجلاً قبل أن تتمكن من الفرار فيقبضون عليها، فصبت جانباً منه فى الماء ومزجته بالعسل وقدمته له. فتناوله وشربه الى آخره، وهو يريد أن ينام ليبكر فى الرحيل ويخلو بالفتاة فى حوران.

أما هى فلما تحققت انه شرب الكأس خرجت من الخيمة، ولم يشك فى أمرها أحد.. ثم سارت توا الى الناسك فرأته واقفاً فى ظل الشجرة، فأشارت اليه اشارة فهم منها انها أتمت مهمتها وتريد الفرار، فقال: «هيا بنا لا تخافى».

وتسلق الشجرة وعاد ومعه صرة تأبطها، وأمسك سلمى بيده وخرج بها فى طريق لا يراهما أحد. ولم تمض برهة حتى توارايا عن الدير

وأصبحت فى الصحراء، فوقف الشيخ وفتح الصرة فأخرج منها ثوبين من أثواب أهل البلقاء.. أعطى سلمى ثوباً ولبس الآخر، فأصبح لا يشك من يراهما فى أنهما رجلان من أهل البلقاء، فعجبت سمى لتأهب الشيخ الناسك وحذره، ولكنها ظلت خائفة فقالت: «أخشى أن يلحق بنا الجند، وربما تمكنوا منا فما العمل»!

قال: «لا تخافى.. أتبعينى، والله يرعانا» فسارت فى أثره، وقضيا بقية ذلك الليل يلتمسان الطريق والناسك يرشدها كأنه يسير فى ضوء النهار.

صرح الغدير

وأصبحا فى اليوم التالى، فإذا هما بالقرب من بناء خرب تدل بقاياه على فخامة أصله لضخامة أحجاره وسعة مساحته.. فقالت سلمى: «أين نحن يامولاى»؟

قال: «اننا فى البلقاء، وهذا صرح الغدير الذى يتغنى به الشعراء».

قالت: «ألا يسكنه أحد الآن»؟

قال: «كلا.. فإنه من بناء الغساسنة – وكانوا عربا نصارى – فلما جاء المسلمون الشام وفتحوها دخلوا تحت امرتهم. وكان القصر لبعض ملوكهم يقيمون فيه بعض السنة، وهو من بناء أحد أجدادهم ثعلبة بن عمرو.. بناه منذ أربعة قرون.

قالت: «فالقصر مهجور الآن»؟

قال: «أجل.. ولا بأس من أن نختفى فيه بقية هذا اليوم، ولا يمكن أن يهتدى الينا أحد.. فإذا انقضى النهار نستأنف المسير ولا خوف علينا بإذن الله».

قالت: «والله لا أبالى إذا مات يزيد أن أموت أنا فى أثره، إذ أكون قد قمت بالواجب وشفيت ما فى نفسى ونجيت المسلمين من شر عظيم».

قال: «انه ميت لا محالة لأن نصف هذا السم كاف لقتله».

قالت: «ولكننى لم أسقه أكثر من النصف، فهل يقتله»؟

قال: «انه يقتله بعد أيام، وقد فعلت حسنا بتقليل الكمية».

ومشيا وهما يتكلمان حتى دخلا من باب القصر الى ساحة تراكمت فيها الأتربة والأحجار، وانسابت فيما بينها بعض أنواع الحشرات. فتحول الشيخ وسلمى إلى بقايا غرفة كأنها كانت مجلس أهل ذلك القصر فى أيام عمارته، لها نافذة تطل على واد فيه آثار جدول جف ماؤه منذ أعوام. فاختار الشيخ حجراً نظيفاً بجانب النافذة وأجلسها عليه وجلس هو إلى جانبها. ثم نهض بغتة وقال: «دعينى أنصرف عنك برهة ثم أعود اليك بالطعام.. هل تخافين الوحدة»؟

قالت: «لا أخاف، ولكننى أستوحش وأنا فى هذه الخرائب المرهبة. دعنا من الطعام فإنى لا أحتاج الى شىء منه غير الذى جئتنى به من الدير ريثما ننتقل إلى مكان آخر».

قال: «تحدثني نفسي أن نختبىء فى هذا المكان غير يوم لنرى ما يكون، ولا أظن أن أحداً يعرف مقرنا. فإذا انطوى النهار فرغ زادنا، ولا يعيش الإنسان بلا طعام.. فامكثى هنا ولا بأس عليك، وأنا أذهب لعرب أعرفهم من بقايا الغساسنة على بضع خطوات من هذا المكان، فآتيك بما تصل إليه يدى منهم، والله الموفق.

وخرج الشيخ الناسك، وعليه ثوب أهل البلقاء، وبقيت سلمى بين تلك الأطلال وحدها.. وما أن توارى الشيخ عن بصرها حتى أحست بالوحشة، فمشت لتتفقد بقايا ذلك الصرح وتتأمل فى أصل تكوينه.. فخرجت من تلك الحجرة الى غيرها فغيرها حتى انتهت الى دهليز مشت فيه فأفضى بها الى سلم يطل على الوادى، فانحدرت على السلم حتى انتهت الى مصطبة صغيرة. وكانت قد تعبت، فجلست عليها وأعجبها الظل وأنعشها النسيم البارد، فطاب لها البقاء هناك برهة.. فأحست بالتعب الشديد والنعاس الثقيل على أثر ما قاسته فى الليلة الماضية من التأثر والسهر والركض، فغلب عليها النعاس فنامت واستغرقت فى النوم.

وبينما كانت سلمى مستغرقة فى نومها، إذ طرق سمعها جعير

جمال.. فأفاقت مذعورة ووقفت بغتة والتفتت الى ما حولها فرأت ثلاثة رجال قادمين من عرض البر نحو القصر، وعلى الرجال الملابس الدمشقية، فارتعدت فرائصها ولم تشك أنهم من أتباع يزيد وقد اقتفوا أثرها بعد ما أصاب يزيد من سوء، فهرولت على السلم وعادت إلى الدهليز ومنه الى الحجرة التى كانت فيها، وانزوت بحيث ترى القادمين ولا يرونها.. فإذا بهم قد ترجلوا بجانب شجرة على بعد مائة ذراع من القصر، وعقلوا الجمال واستخرجوا طعاماً وجعلوا يأكلون. فتوارت سلمى عنهم، وعادت الى جهة باب القصر لعلها تجد الشيخ عائداً من مهمته فتستأنس به، فلم تجد أحداً.. فاستبطأته وشغل غيابه خاطرها، وهى تعلم انه لا يبطىء إلا لأمر ذى بال. فعادت الى الحجرة وقد مالت الشمس ودنت من الأصيل ولم يعد الشيخ.. فازداد قلقها فعادت الى باب القصر، ولم تكد تصل إليه حتى رأت الشيخ يعدو نحوها، فوقفت فى انتظاره.. فلما أقبل استغربت مظهره لأنها رأته قد قلم أظافره ومشط لحيته وقص شعره ورفع حاجبيه عن عينيه، ولولا الثوب الذى رأته عليه فى ذلك الصباح لما عرفته، ولكنها رأت التعب والبغتة فى وجهه، فقالت: «ما وراءك يامولاى؟ وما الذى جرى»؟

قال: «ما ورائى إلا الخير.. دعينى أسترح ثم أقص عليك الخبر، ولكنه خبر مفرح لا تخافى»، فاطمأن بالها بعد أن كانت مضطربة.. وبينما هى فى انتظاره وهو يلهث من التعب، سمعت وقع أقدام خارج الباب وسمع الشيخ ذلك أيضاً.. فجلس وقد استراح وهدأت أنفاسه، ثم وقف وتقدم الى الباب، فرأى رجلاً عليه لباس أهل دمشق والشيخ لا يزال – هو وسلمى – بلباس أهل البلقاء، وقد أمر سلمى أن تبقى داخل القصر ريثما يعود.. فمكثت كما طلب منها..

أما هو، فلما أقبل الرجل رحب به وحياه.. فقال الرجل: «هل فى هذا المكان منزل للضيوف»؟

قال الناسك: «كلا، وإنما هو قصر خرب لا يسكنه أحد».

قال: «ولكننا رأينا فيه أناساً».

قال: «ليس فيه أحد الا أنا وابنى.. وقد مررنا به فى هذا الصباح فأقمنا ريثما نستريح.. من أين أنت قادم» ؟

قال: «إننى قادم مع رفيقى هذين (وأشار إلى رفيقيه) من دمشق».

قال الشيخ: «والى أين تقصدون؟».

قال: «الى بصرى.. ويظهر لى من لباسك انك من أهل البلقاء، فهل كنت فى بصرى» ؟

قال الشيخ: «نعم اننى قادم منها».

قال: «هل مررت بدير بحيراء؟».

قال الشيخ: «نعم».

قال: «أرأيت فى الدير أو فى جوار الدير شيخاً ناسكاً لا يأوى المنازل؟».

فلما سمع الشيخ كلام الرجل خفق قلبه، وقال: «نعم أظننى رأيت مثل هذا الناسك هناك.. ولكن ما الذى يهمك من أمره؟»..

قال: «لا يهمنى شيء، ولكن رفيقى عرفاه مذ كان بجوار دمشق».

فأدرك الشيخ أن فى الأمر سراً يهمه أن يطلع عليه، فقال: «ومن هما رفيقاك؟». قال: «لا أدرى من أين هما؟.. ولكننى صحبتهما من جوار دمشق على أن آتى بهما الى بصرى ثم أعود.. وهما اللذان قصا علىّ كرامات الشيخ الناسك».

قال الشيخ: «لماذا لا يأتيان الى هنا، فأقص عليهما من نبأ الشيخ الناسك ما يغنيهما عن التعب الكثير؟».

مصادفة غريبة

فتحول الرجل الى رفيقيه، وسار الشيخ فى أثره حتى أقبل على الرجلين، وكانا جالسين تحت الشجرة.. فلما رأيا الناسك مقبلاً مع رفيقهما تبرما كأنهما استاءا من قدومه. أما الشيخ فلم يكد يراهما حتى عرف انهما عامر وعبدالرحمن ففرح فرحاً عظيماً، ولكنه تجلد وأراد أن يمتحنهما. فما أطل عليهما رحبا به، فقال لهما: وماذا تريدان

من الشيخ الناسك؟ لعلكما من أهله؟»..

فقال له عامر: «لسنا من أهله، ولكننا عرفناه فى دمشق، وأحببنا أن نلقاه.. فهل رأيته؟».

قال: «لقيته فى دير بحيراء، ولكنكم إذا ذهبتم اليه فلن تجدوه هناك».

قال عامر: «وأين نجده؟»..

فالتفت الشيخ الى رفيقهما، وخاف من التصريح أمامه، فقال لعامر: «إذا شئت أن ترى الشيخ الناسك، فإنى أدلك على مكانه فى هذه الساعة.. تعال معى».

وكان عبدالرحمن جالساً يسمع حديث عامر والشيخ وهو لا يتكلم، فلما سمعه يقول ذلك نهض وقام عامر.. ومضيا حتى بعدا عن الشجرة ودنوا من القصر، فقال الشيخ: «ان الشيخ الناسك مقيم فى هذا القصر الخرب».

فقال عبدالرحمن: «منذ صباح هذا اليوم وأنا أنظر إلى هذا القصر، فلم أجد فيه غير شاب يظهر أنه فى ريعان الشباب، وكأنه مقيم وحده هنا.. وقد استغربنا مقامه».

قال وقد رفع صوته: «ياللعجب.. أقول لكم قولا فلا تصدقوننى»، فلما سمع عامر صوت الشيخ ينتهره اشتبه عليه، وجعل يتأمل فى سحنته فرآه يشبه الناسك من جهة، ومن جهة أخرى يشبه شخصاً آخر يعرفه ولم يكن قد رآه منذ بضعة عشر عاماً، فلبث عامر صامتاً لا يتكلم كأنه أصيب بالبله..

فقال له الشيخ: «ما بالك؟.. ما الذى ربط لسانك ياعامر؟».

وما أتم كلامه حتى ترامى عامر على الشيخ، وجعل يقبل يديه ويقول: «أنت الشيخ الناسك؟».

قال: «أنا هو»..

فلما سمع عبدالرحمن ذلك صاح فيه: «وأين سلمى؟».

قال: «وما أدراك ببقائها وأنت أخبرتنى انها ماتت ورأيت قبرها

محفورا؟».

فقالت: «قلت لك ذلك.. وهذا هو اعتقادى واعتقاد عمى عامر، ولكن زينب بنت على أنبأتنى بأنها على قيد الحياة، وأنها صحبتها فى موقعة كربلاء ثم إلى دمشق، ثم لم تعد تعرف مقرها»..

فنظر الشيخ إلى عبدالرحمن، وقال: «وهى كانت تعتقد أنك ميت حتى أنبأتها – ونحن فى كربلاء – بأنك حى. ثم علمت أنك خرجت الى الكوفة فى مهمة وانقطع خبرك، فيئست من بقائك و...».

فقطع عبدالرحمن حديثه وقال: «والآن قل لى أين هى سلمى؟».

قال: «ألم ترها اليوم؟».

قال: «أين؟».

قال: «فى هذا القصر»..

فأطرق عبدالرحمن، ثم قال: «علها هى الشخص الذى رأيته وحسبته شاباً؟».

قال: «نعم».

فهم عبدالرحمن بالمسير الى القصر، وقد شاعت عيناه وخفق قلبه، ولم يعد يصبر عن رؤية سلمى.. فمنعه الشيخ وقال: «تمهل لأطلعها على خبرك رويداً رويداً لئلا تضر المفاجأة بها.. وأرى أن تصرفا هذا الرفيق الى مكان ما لئلا يطلع على شىء من أمرنا».

فقال عامر: «انه رفيق مأجور ليدلنا على الطريق».

قال الشيخ: «فاصرفه الساعة، ونحن نعرف الطريق».

قال عامر: «سأرسله الى بصرى ليسأل عن الشيخ الناسك هناك ويعود».

أما عبدالرحمن، فأشرق وجهه وأبرقت أسرته، وأخذ يتطلع الى القصر ويتطاول لعله يلمح سلمى..

خبر غريب

أما الشيخ فأسرع الى القصر، فرأى سلمى فى الحجرة وقد ملت الانتظار لتعلم من هو ذلك الرجل، وتستطلع ما دعا إلى تغيير سحنة الشيخ وبغتته.. فلما أقبل عليها ابتدرته بالاستفهام عن سبب ذلك التغيير، فقال: «دعى عنك ذلك الآن، وفكرى معى فى كيفية النجاة من هذه الورطة».

قالت: «وأى ورطة؟»، وعلت الحمرة وجهها.

قال: «ان هؤلاء الرجال قادمون من عند يزيد للبحث عنك، فهل أخبرهم بمكانك؟».

فبغتت سلمى، وقالت: «قلت لك انى لا أبالى بما يحدث لى إذا علمت أن سهمى أصاب مقتلا من يزيد».

قال: «إذا أكدت لك أن يزيد قد مات من تلك الجرعة، هل تسلمين نفسك الى رجاله ليقتصوا منك»؟

قالت: «إذا استطعت النجاة لا ألقى بنفسى بين أيديهم، أما إذا قبضوا علىّ وأرادوا قتلى فانى لا أبالى بالموت.. ولكن».. وسكتت.

قال: «مالك ترددين؟.. قولى، إن هؤلاء الثلاثة تتبعوا خطواتنا حتى أدركونا هنا وهم يبحثون عنك، فهل أقول هم انك هنا؟».

قالت والبكاء يغالبها ويختنق صوتها: «أراك تهزأ بى، وعهدى بك أحن علىّ من الوالد على ولده.. فما بالك تتجاهل عواطفى؟ وأنا مع ذلك لا أستحى أن أقول: إذا كان حبيبى عبدالرحمن لا يزال حيا، فإنى أضن بحياتى وأحب البقاء من أجله.. وإلا فإنى لا أنتظر رجال يزيد ليبحثوا عنى، بل أنا ألقى بنفسى بين أيديهم وأعرض صدرى لأسنتهم أو أتجرع بقية السم وهو لا يزال معى.. أكد لى أن عبدالرحمن مات، فترانى ميتة فى هذه الساعة» قالت ذلك وهى تشهق من شدة البكاء.

فأجابها الشيخ بضحكة طويلة طالما سمعتها منه، وقال لها: «عبدالرحمن؟! ايه.. ومالك وعبدالرحمن؟.. وإذا فرضنا أن يزيد قد

مات وعبدالرحمن حي، فماذا تقولين؟».

قالت: «قلت لك يامولاى.. لا تهزأ بعواطفى فقد كفانى ما أصابنى، أستحلفك بالله أن تتركنى وشأنى».

قال: «وما معنى الاستهزاء الآن؟!.. إنى أقول الجد.. وإذا كنت لا تصدقينى فإنى أرفع صوتى مناديا عبدالرحمن فإذا هو بين يديك وعامر معه».

فحدقت فى الشيخ وعليها سمات الدهشة، وفكرت قليلاً وهى لا تزال تظنه يمزح، ولكن قلبها خفق خفقات الفرح.. فقالت: «نعم.. ادع لى عبدالرحمن، أو قل لى أين هو فأسعى اليه على رأسى ويدى».

قال: «بل هو يسعى اليك.. تمهلى.. ريثما أدعوه اليك».

قال ذلك وخرج، وهى لاتزال تحسبه يعبث بها، ولكنها سارت فى أثره.. فلما وقع بصرها على الرجلين، قالت فى نفسها: «لعل عبدالرحمن أحدهما» فلما أطلت عليهما عرفت عبدالرحمن وأسرعت وأسرع حتى تقابلا.. ورمت نفسها بين ذراعيه فضمها ودموعهما تتساقط من شدة الفرح، وعامر والشيخ واقفان وقلباهما يرقصان فرحاً لالتقاء الحبيبين بعد اليأس من اللقاء.. ثم دخلوا جميعاً إلى القصر، ويد سلمى بيد عبدالرحمن.. وعامر لا يزال يفكر فى أمر هذا الناسك ومشابهته رجلاً يعرفه..

موقعة الحرة

فدخلوا الحجرة، وجلسوا يقصون ما مر بهم..

فبدأ عامر يقص ما صادفه وصادف عبدالرحمن منذ ذهبا إلى الكوفة، فقال: «ذهبنا الى الكوفة للبحث عن أمر مسلم بن عقيل، فقبضوا على رفقائنا ونجونا نحن واختفينا فى مكان ريثما نرى ما يكون من أمر الحسين ورجاله، فلما علمنا بمقتلهم وإرسال أهلهم إلى دمشق اقتفينا أثرهم إليها، فقيل لنا إنهم أرسلوهم إلى المدينة، وكان اليأس قد أخذ منا مأخذا عظيما لاعتقادنا بموت الحبيبة سلمى، مع حبوط مسعانا فى نصرة الحسين. وسرنا إلى المدينة فأقمنا فيها حينا.

ولم يتفق لنا لقاء زينب إلا بعد موقعة الحرة التى أتم بها يزيد فظائعه. وكنت فى أثناء هذه الموقعة مع أهل البيت، فلما لقيت زينب سألتنى: هل لقيت سلمى؟.. ثم أخبرتنى بما كان من أمرها، وبأنها فارقتها آخر مرة خارج دمشق، فركبنا إلى دمشق وبحثنا عنها فلم ينبئنا أحد بخبرها. ولكننا فهمنا فى أثناء البحث أنك كنت هنا فى ذلك الوقت، فترجح لنا انكما سرتما معا.. وبعد التحرى علمنا من بعض القادمين من بحيراء الى دير خالد انك تقيم الى جانب بصرى، فجئنا لعلنا نراك ونبحث عن سلمى.. فالحمد لله على هذه المصادفة الغريبة».

وقصت سلمى ما اتفق لها منذ كانت فى قصر يزيد الى آخر حديثها، وقص الناسك ما كان من موقعة كربلاء حتى أتى على حديث الأمس وجرعة العسل، فابتدرته سلمى قائلة: «لم تخبرنى بعد عن سبب تغيير سحنتك»؟!

قال: «هذا لا أخبرك به الآن، ولكننى أخبرك بسبب تأخرى عن الرجوع، وذلك انى لما خرجت لاحضار الطعام، رأيت أن استطلع عاقبة تلك الكأس، فهرعت الى بصرى لأتنسم الأخبار، فعلمت أن يزيد ركب فى ذلك الصباح وهو يشكو من جنبيه، وقد اصابته بحة.. وهذه أول أعراض ذلك السم، وما أظنه الا ميتا قريبا، فينجو الإسلام والمسلمون من خلافته».

وكان الشيخ يتكلم وعامر يتأمل فى ملامحه وحركاته لمشابهته رجلاً يعرفه، فلما سمعه يذكر قرب موت يزيد، شغله الفرح بذلك عن كل شاغل، وكذلك عبدالرحمن وسلمى، وباتوا تلك الليلة ولم يناموا إلا قليلاً لشدة الفرح.

موت يزيد

وفى ضحى اليوم التالى، عاد رسولهم الذى ارسلوه الى بصرى، فسألوه عما وراءه فقال: «لم أجد الشيخ الناسك، ولكنى سمعت بموت يزيد على حدود حوران».

فصاح الشيخ: «هل تحققت من موته»؟

قال: «نعم يامولاى».
فقال الشيخ: «وما سبب موته وعهدنا به صحيح البدن، ولم يجاوز الثامنة والثلاثين ؟».
قال الرجل: «سمعتهم يقولون انه أصيب بداء الجنب والذبحة، وكأنه ذاب ذوبان الرصاص».
فتظاهر الشيخ بالأسف، وأشار الى عامر أن يصرف رسوله ففعل.. ثم عاد وخلا الأربعة فى إحدى الحجرات، ولم يمر بأحدهم يوم أسعد من ذلك اليوم ولاسيما سلمى، لأنها هى التى باشرت الانتقام بنفسها.
ونظر إليها عبدالرحمن نظرة المحب المفتون وقال: «لا أدرى كيف أبدى لك حبى؟ وقد أحرزت أشرف خلال النساء وأندر خلال الرجال، فجمعت بين الجمال والوقار والحكمة والعقل والشجاعة.. وحسبك انك قتلت ذلك الدعى وأنقذت المسلمين من ظلمه، وانتقمت لأبيك انتقاماً عجزنا كلنا عنه».
فقالت سلمى: «إنى إنما فعلت ذلك لأنه الواجب».
وكان الشيخ فى أثناء ذلك شاخصاً فى القضاء كأنه مستغرق فى أمر ذى بال، وعامر ينظر اليه من طرف خفى ويتفرس فى وجهه وهو متأكد من مشابهته رجلاً يعرفه، وهو عزيز عليهم جميعاً، ثم انتبه الشيخ الناسك كأنه هب من نوم ،والتفت اليهم وقال: «آن لى أن أقص عليكم ما تتساءلون عنه من خبرى.. تعالوا معى».
فساروا فى أثره حتى دخلوا غرفة، فجلس وقد تغير وجهه وبان الجد فى عينيه وكأنه كان مصاباً بالجنون وعاد عقله اليه فى تلك الساعة، وظهر ضعف الشيخوخة فيه. وقبل أن يقص حكايته التفت الى عامر وقال: «ألم تعرفنى بعد ياعامر؟»..
فتفرس فيه عامر وقال: «قد عرفتك الآن فقط.. ألست عديا والد حجر؟».
قال: «نعم».
فلما قال ذلك التفتت سلمى اليه وقال: «جدى ؟!»

قال: «نعم ياحبيبتى، ولعلك أدركت شيئا من ذلك يوم سمعتنى أرثى الحسين فى سهل كربلاء».
فترامت سلمى على يديه تقبلهما، فقبلها عدى وهو يبكى ويشهق، وبكى عبدالرحمن وقبل يد الشيخ.. ثم عاد الشيخ الى اتمام الحديث فقال: «أما سبب تكتمى، فذلك أنى لما اصبت بمقتل حجر لم يعد يحلو لى البقاء. ولكن قلبى ظل عالقاً بالانتقام، فعللت نفسى بموت معاوية ومبايعة الحسين، وجعلت مقامى فوق قبر ابنى فى غوطة دمشق أستنشق ترابه وأتنسم ريحه. فلما لم يظفر الحسين بالبيعة، وتولى الخلافة يزيد صبرت فى انتظار الفرج أو الموت، فلما جئتم الى دير خالد واجتمعتم تحت الجوزة وتعهد عبدالرحمن بقتل يزيد، كنت أنا مختبئاً فى أعلاها. وظللت كاتما أمرى وأنا أسعى فى مساعدتكم جهدى، وأخفى وجهى حتى لا يعرفنى عامر. وقد عاهدت الله منذ مقتل حجر الا أقص شعرى ولا آكل غير الفاكهة ولا آوى الى المنازل، فلما علمت أمس بقرب موت يزيد تحللت من نذرى وقصصت شعرى كما تروننى».
وسكت الشيخ قليلاً، ثم قال: «أما وقد مات يزيد، فقد آن لى أن أسلم الروح، وإنى أوصيكم بتقوى الله، والتفانى فى نصرة أهل النبى، فأقيموا بمكة وحجوا الى كربلاء وابكوا قتلاها ما استطعتم، ويقتص الله من القوم الظالمين».
قال ذلك وقد تلجلج صوته، وكلهم يبكون ويعجبون، ثم توسد وتمطى وهو يقول: «انى أتلقى الموت بالترحاب». وما أتم قوله حتى أسلم الروح.
فبكوه وهم فى دهشة من أمره.. ثم دفنوه فى أصيل ذلك اليوم..
وبعد أيام رحلوا عن البلقاء، حتى وصلوا إلى مكة وفيها ابن الزبير ولا سلطان للأمويين فيها، فعقدوا لعبدالرحمن على سلمى، وعاشوا فى هناء وسلام.


قبرص
حلب
البحر المتوسط
دمشق
نصيبين
سنجار
سورية
كربلاء
قصر مقاتل
عذيب الهجانات
الكوفة
البيضة
ذو حسمى
شراف
بطن العقبة
زبالة
زرود
الخزيمية
الحاجر
المدينة
وادى العقيق
الصفاح
التنعيم
مكة
البحر الأحمر
الخليج العربي
مسير الحسين رضي الله عنه من مكة الى كربلاء
طريق ما تبقى من أهل بيت الحسين أسرى الى دمشق
في كربلاء كان استشهاد الحسين

هذه الطبعة من سلسلة روايات الهلال للأولاد والبنات
تصدرها دار الهلال
بالاشتراك مع المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة